الثقافية
AL-THAQAFIYA

العدد ٢٤/ السنة السابعة عشرة/ جمادى الآخرة - ١٤٣٢هـ/ مايو - ٢٠١١م

الجناح السعودي
في معرض لندن للكتاب

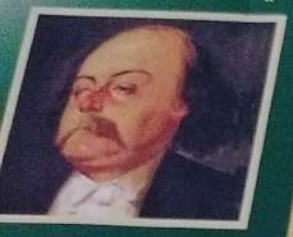

رحلة «فلوبير»
إلى الشرق

المكتبات ال
في بيت ال

مواقف
لشعو

كوكبة من السعوديين تحتفي وتحتفل

مداخل نظرية في مفهوم الفضاء المكاني وأهميته في الرواية العربية

د. محمد عبد الرحمن يونس (*)

للمكان أهميّة كبيرة في بناء الحدث الحكائي، فهو البنية الأساسيّة من بنياته الفنيّة، ولا يمكن تصوّر أحداث قصصية إلاّ بوجود مكان تنمو فيه وتتشعّب، لأنّ المكان يحتوي على الأحداث ويبنيها ويشعّبها. ومن داخل الفضاء المكانيّ تتم عمليات التخيّل والاستذكار والحلم، فلا يمكننا أن نتخيّل بطلاً أو شخصية قصصية تفكّر وتتفاعل مع أخرى، وتراقب وتحلّل الأوضاع الإيديولوجية والاجتماعيّة، أو تثبت رؤاها إلاّ من داخل المكان ومن خلاله.

ويحدّد المكان في النصوص الحكائيّة مسار الشخصيات، وهو ضروري بالنسبة للسرد الحكائيّ، لأنّ السرد يحتاج لكي ينمو ويتطوّر، إلى عناصر زمانيّة ومكانيّة، والحدث « لا يُقدّم سوى مصحوب بجميع إحداثيّاته الزمانيّة والمكانيّة، ومن دون وجود هذه المعطيات يستحيل على السرد أن يؤدّي رسالته الحكائيّة» (١).

إنّ الفضاء المكانيّ بامتداداته ومكوّناته يساعدنا على فهم الشخوص التي تقطنه، ووضعها الاجتماعيّ، وتكوينها السياسي والفكريّ والإيديولوجيا المعرفيّة التي تتبناها، وبالتالي يمكّننا من أن نفهم مجمل الأوضاع السياسيّة والثقافيّة والاقتصاديّة لمجتمع من المجتمعات، أو مدينة من المدن، فالفضاء المكانيّ لا يتشكّل إلاّ عبر رؤية ما، بل ويمكن القول بأنّ الحديث عن المكان (.) هو حديث محور عن رؤية ذلك المكان وزاوية النظر التي يتّخذها الرّاوي عند مباشرته له. فالرؤية التي ستقودنا نحو معرفة المكان وتملّكه من حيث هو صورة تنعكس ... ويدركها وعيه قبل أن يعرضها ... (٢). والفضاء المكانيّ في ... يكشف عن عادات سكّانه، و... والمعرفيّ والسياسيّ. إنه بت... في صيرورتهم التاريخيّة ... أحد الباحثين «أنّ المكان ... الحكي لأنّه يجعل القصة ال... مماثل لمظهر الحقيقة» (... «البوابة الأقدر على تمكين ال... دواخل الروايات واكتناه أعما...

ومن هنا، فإنّ تشكّل الا... يفترض صوراً جديدة للا... واسعة أم ضيّقة (٥). ويرى المكان بالنسبة لقاطنيه ... ومصدراً للاعتزاز والتعلّق. ... هو أحد الدعائم المفضّلة ل... ينظر إليه من يسكنونه أو من ... بطرق مختلفة، يُضاف إ... يشغلونه، ويتجوّلون فيه ويس...

والانحطاط والكذب والرياء، والنفاق الاجتماعي، فضاء يرتكب فيه قاطنوه أبشع أنواع المعاصي والموبقات سرا، لكنهم يخجلون من ابتسامة ود علنية، فضاء ملوّث بشراهة أسطورية صوب الاستهلاك والامتلاك، استهلاك السلع ومنتجات الحضارة المادية، وامتلاك الأموال وتثميتها، والنساء، وكثرة الابتناء بهنّ. ونلاحظ أنّ فضاء المدينة في الرواية العربية، وعلى الرغم من تعدديته وكونه فضاء حاملا للمعرفة، ومنتجا لها في آن، فإنه لا يحترم العلمي والمعرفي، ولا يقدر العلماء والمبدعين والمثقفين ومنتجي المعرفة، فهؤلاء، مهمّشون ومستغلبون، ومهانون وفقراء وفاقدون لطمأنينتهم الروحية والإنسانية، وغير قادرين على أن يكونوا فاعلين لا على المستوى الفردي أو الجمعي، ولا على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، أمّا الفاعلون في هذا الفضاء فهم التجار والمرابون والسماسرة، والفاعلون في التجارة والاقتصاد، يضاف إلى ذلك المغنيات والراقصات والنساء الجميلات اللواتي يلعبن دورا رئيسا وفاعلا في بنية فضاء المدينة، وفي تشكيل كثير من علاقاته وقيمه، وبالتالي في تشكيل كثير من بنياته السردية، وخطاباته وثقافته الاستهلاكية.

إنّ الرواية في فضاءاتها المكانية النامية والمتعددة، على حدّ تعبير كريستوفر كودويل «هي بعتمد على أناس في مجتمع ما يعيشون أنماطا متباينة جدا من الحياة، وأن هذه الأنماط تتداخل وتتصادم في ما بينها فتوجد أحداثا تصوّر بدورها كيانات إنسانية متباينة جدا، وهذا كلّ يبني المادة التي يجعل منها الروائي فنا قصصيا. ولذا فإنّ الرواية لا توجد إلاّ في المجتمعات النامية والمدن الكبيرة. حيث تتوفر هذه الأنماط الحياتية المتفاوتة، وحيث هي دائما ممكنة، وفي صيرورة» (١٤).

فضاء الحانة

يأخذ فضاء الحانة بعدا معرفيًا مهما في النصوص الروائية العربية، وإن كان محدودا بمجموعة من الفضاءات الفرعيّة الأخرى، والأشكال الأخرى المتواجدة في الحانة، إلاّ أنّ له بعدا معرفيًا وإشاريا ذات دلالات بعيدة، وحمولات إيديولوجية، وإشارات رمزيّة لها ارتباطاتها المعرفيّة والبنيويّة ببنى الحياة العربية المعاصرة، إنّه يساعد الأنا الداخلة فيه «على التعرف على ذاتها» (١٥)، وذلك من خلال سرد همومها واغترابها ويأسها في الواقع العربي المحبط، وبالتالي يسهم فضاء الحانة في كشف بؤر الواقع الفاسدة، اجتماعيا وسياسيا، ويسهم أيضا في فضح البنية المجتمعية السفلية والعليا معا، ولأنه مكان محرّم فهو فضاء مغر للأشخاص الداخلين فيه، ولأولئك الذين لم جربوه بعد. وعلى الرغم من خطورته، نظرا بذاءة السكارى والمخمورين فيه، وصعوبة مزجتهم المتقلبة، وميلهم إلى العنف والعراك الوحشي. ويتسهم من الحياة، فإنّه في كثير من الخطابات الروائية العربيّة المعاصرة، يبدو مألوفا وحميما لدى شخوصه، سواء أكانوا رجالا أم نساء. إذ تنشأ بين هؤلاء الشخوص صداقات معرفية وإنسانية عميقة، يتخذ منها الروائي شكلا من أشكال الرفض لبنى الحياة الواقعية والسوداوية، سواء أكانت هذه البنى سياسية أم اجتماعية، أم مذهبية أم طائفية

فضاء الريف

من أهمّ مزايا الرواية العربية المعاصرة «الامتداد والتنوع والابتكار» (١٦)، ومن داخل الفضاء المكاني يتمّ هذا الامتداد وهذا التنوع: فوصف العلاقات القائمة في المكان، بشتى أشكالها، هو الذي يسهم في نمو الفضاء المكاني. ولا نغالي إذا قلنا إن المكان هو الحاضن لمجمل الطرائق الفنيّة والجماليّة التي يقوم عليها البناء الروائي، فمن خلال المكان ينمو السرد ويتشعّب، ويتجدد الحوار، وتوصف الأشكال، وتنمو الشخصيات وتتوالد مشكّلة الرئيسة والثانوية منها في آن. وإذا كان ازدهار الفن الروائي مرتبطا بنشأة المدن الكبرى، وعلاقاتها المتعددة والمتباينة المتغايرة، وبالتالي المتنوّعة والمتناقضة، فإنّ هذا الارتباط لم يمنع الروائي العربي من الاحتفاء بفضاء الريف وعاداته وعلاقاته التي يراها لم تتلوث بعد، والإشادة بهذه العلاقات والعادات، وبخاصّة عند الكتاب الرومانسيين الذين يلوذون بفضاء الريف، ويعتبرونه ملاذا آمنا للطمأنينة الروحية والإنسانية، فلقد كانت «الرومانسيّة - على المستوى العربي- نقطة البداية الطبيعية لرواية عربية تنهض على قيم فنيّة ناضجة، (ف) الرومانسية سمة غالبة على البدايات المتعددة في مناطق مختلفة من الوطن العربي» (١٧).

فضاء السجن في الرواية العربية

يعدّ فضاء السجن من أهمّ فضاءات المدينة العربية في الرواية العربية المعاصرة، ولعلّه أكثر الفضاءات الموصوفة ذات الحمولات الإيديولوجيّة والسياسية التي يريد الروائي الإشارة إليها ترميزا أو تصريحا، فهو فضاء مظلم كريه يثير الرعب والخوف والاشمئزاز، والدخول إليه يعني التصفية الجسدية أو الجنون والهذيان، وهو «فضاء للعزل القسري الفردي والجماعي...وبما هو فضاء للحجز الجسدي فهو أيضا مجال للموت البطيء، والسريع، للعذاب الجسدي والنفسي وللرتابة القاتلة. السجن بهذا المعنى قبر وإقبار للجسد حيا... وفصم لكلّ ما يربط الذات بالآخر»(١٨).

وضمن «هذا الأفق جرت تغطية العالم الذي يشكّله الفضاء السجني في الرواية، وذلك من خلال إبراز ملامحه الطوبوغرافية المميزة والتعليق على أهمّ المظاهر التي تنشأ عنها. وقد أخصبت هذه الدلالة المزدوجة للمكان خيال الروائيين فراحوا يتأملون في فضاء السجن بوصفه عالما طارئا ومغارقا للمعتاد مستغلين في ذلك لغة شارحة غاية في التنوع» (١٩)

إنّ أفق الحريات الضيق في العالم العربي، غير المتنامي أو غير المتجدد، وعدم قدرة المثقفين والأدباء العرب على التصريح بآرائهم ومكنونات نفوسهم شكّل لديهم إيديولوجيا مضادة لايديولوجيا الدولة التي يعيشون فيها ولبنيتها المعرفية أيضا. فهم الطرف الأضعف والمسلوب الإرادة، في حين أن الدولة تشكل منظومة قوية متكاملة من الأعراف والقوانين والمفهومات والنظريات التي يصعب اختراقها لأنها «تملك سلطة قسرية تعلو قانونا على أي فرد من أفراد المجتمع، أو أي جماعة من الجماعات التي هي جزء من هذا المجتمع، ومن ثمّ تكون الدولة وسيلة خاصة لممارسة السلطة وهي خاصة لأنها عليا، وهي خاصة أيضا لأنها قسرية. وما من سلطة أخرى في المجتمع تستطيع أن تكون لها سلطة مماثلة، أو حتى مفوّضة من الدولة في ذلك. فالدولة وحدها التي لها الحق الشرعي في تقنين وتسجن رعاياها، وأن تستخدم قوتها لتجبرهم على قبول قراراتها» (٢٠).

وإذا كان فضاء السجن في مهمته الأساسية يهدف إلى حماية الدولة والمجتمع والفئات التي تعيش في هذا المجتمع، من كل الذين يخترقون قوانين الدولة ويتخطونها، ويشكّلون خطرا عليها، وعلى مواطنيها وسلامتهم، وأمنهم الإنساني والاقتصادي، وإذا كانت من مهمات السجن الرئيسة، والتي وضعت له، إصلاح المارقين المجرمين، وتهذيب نفوسهم، وإعادة بنائهم بناء أخلاقيا ونفسيا يتوائم مع مجموع أنساق القيم المجتمعيّة السائدة، في مفهوماتها النظريّة والعملية، فإن هذا الفضاء، يشكّل في الرواية العربية دلالات مغايرة وحمولات إيديولوجية، وإشارات معرفية جديدة، فنراه هذا الفضاء قلّما نجد بينهم مجرما، يدخلون أصحاء سليمي العقل والرؤية والتفكير، ويخرجون محطّمين مهمّشين، وفاقدين لأبسط قدراتهم الجسديّة والنفسيّة. إن استحالة مغادرتهم لعالم إقامتهم الجبريّة «سيولد لديهم شعورا بالعجز التام أمام غياب كلّ إمكانية لاختراق هذا الفضاء الموصد ممّا سيجعل مواقفهم تبريرية كثيرا أو قليلا، وسينعكس كلّ ذلك الشعور على معنوياتهم وقدرتهم على المواجهة فنجد الواحد منهم يعاني العزلة والإحساس بالذنب فضلا عن افتقاد الحرية» (٢١).

ونستثني من ذلك نماذج معيّنة عرفت قدرتها على الصبر والتحمل الشديدين، هذه النماذج- بقدرتها الاستثنائية- حوّلت فضاء السجن إلى فضاء للحراك الاجتماعي والسياسي، وقراءة والإبداع، وتشكيل المعرفة وتحصيلها، وإثارة الوعي، وبثّه في نفوس المساجين الآخرين، ويقف على رأس هذه النماذج فئة المثقفين

...ك، يعرفونه ويحبّونه والذي هو بالنسبة إليهم،
...ر المكان، بالمعنى العزّة، أو مصدر تعلّق».
...ويبدو أن دراسة بنية المكان وأوصافه
...ومكوناته في النصوص الحكائية ستساعدنا
...على فهم البنية المعرفيّة، والوضع الاقتصاديّ
...والطبقي للسكّان الذين ينتمون إلى هذا المكان،
...ه وصف الأثاث والأغراض (داخل المكان) هو
...نوع من وصف الأشخاص الذي لا غنى عنه.
...هناك أشياء لا يمكن أن يفهمها القارئ
...وتحسّسها إلاّ إذا وضعنا أمام ناظريه
...الديكور» وتوابع العمل ولواحقه» (٧).
...وبشكل عام يظل بيت الإنسان امتداداً
...له فإذا وصفنا البيت فقد وصفنا
...الإنسان (٨). فعلى سبيل المثال
...يلاحظ أنّ محتويات منازل التجار
...والأثرياء في النصوص الحكائية
...العربية (٩). تشير إلى الوضع
...الطبقي لهؤلاء التجار، وتشير إلى
...أي مدى قطعته هذه الطبقة – في
...الثراء الفاحش وتثمين الأموال،
...كما أنها تكشف عن البنية
...الذهنيّة والسلوكيّة لنساء هاته
...الطبقة وأولادهن وبناتهن، التي
...تنحصر في العبث واللهو،
...ومحاقرة الخرفة، وتشير أيضاً
...إلى مدى عمق العلاقة التي
...تربط السياسي بالتجاري،
...وإلى تقدير السياسي
...التجاري واحترامه له،
...نظراً لأموال التجاري
...الكثيرة

إن الرواية العربية المعاصرة تفوق بقية الخطابات الإبداعية الأخرى، وذلك في قدرتها الكبيرة على تشكيل فضاءات متعددة ونامية، داخلية وخارجيّة، وتجسّد هذه الفضاءات حركة الشخصيات، وهمومهم وآلامهم وآمالهم وتفاعلاتهم مع محيطهم الثقافي والاجتماعي والمعرفي، وليس شرطا أن تكون هذه الفضاءات واقعية، بل كثيرا ما تكون تخيليّة، أو منفيّة أو غائبة عن المكان المعروف بطبوغرافيته المحدودة، فتبدو بعض الأمكنة أسطوريّة أو خرافيّة أو حلميّة، أو موغلة في التاريخ القديم للأمم والحضارات القديمة والبائدة، غير أن الروائي العربي، وحين استحضاره لهذه الأمكنة، بشتى أشكالها ومظاهرها الأسطوريّة أو الخرافيّة، لا يبتعد كثيرا عن الفضاءات الواقعية العربية، بقيمها الكبرى وعاداتها وأعرافها، وبنيتها، وآفاقها المعرفية. وتتعدد صور الفضاء المكاني وأشكاله في الرواية العربية المعاصرة، ونظرا لهذه الصور الكثيرة، فإني سأكتفي بذكر الأمكنة المهمة التالية:

فضاء المدينة في الرواية العربية

تشكل المدينة، في بعدها المعماري والسكاني إطارا تنظيميا واجتماعيا وسياسيا أكثر تعقيدا، وتشكّل فضاءاتها نمطين من العناصر: عناصر أساسية صغيرة كالبيوت الفردية، وعناصر كبيرة وضخمة باعتبار إشاراتها ودلالاتها، وهي: القصور والمساحات العامة وفضاءات العبادة والكاتدرائيات أوالكنائس (١٠)، والأسواق التجارية ودور المسرح والسينما، والمقاهي، والحدائق العامة، والملاهي، والملاعب الرياضية. وتتفرع عن مجمل هذه الفضاءات الكبيرة، فضاءات فرعيّة أخرى كثيرة جدا، وقد كانت الرواية العربية أكثر الخطابات الأدبية تعبيرا عن المدينة، فقد ارتبط ازدهار الفن الروائي بنشأة المدن الكبرى، وانتشار التعليم والجامعات، «كما ارتبط بحصول المرأة على قدر من الحرية الاجتماعية، وبخاصة حق العمل وحق الحب اللذين يتيحان شبكة من العلاقات تسمح بصنع نسيج فني متعدد الألوان، فيه من عناصر الكشف والتشويق ما يغري بالاستزادة» (11).

وإذا كانت الرواية، في بنيتها المعرفيّة «تجمع بين التاريخ والاجتماع والفلسفة وعلم النفس، وتضيف إلى ذلك الشعر والتركيب الموسيقي، وعبقرية الفرد... الذي يعبّر عن وعي أمته، ويصوّر عمقا من أعماق نفسه هو أيضا، بحيث يبقى هو جزءا من الضمير الجماعي الكبير الذي يتغلغل فيه» (١٢)، فإنّ هذا الكم المعرفي التراكمي، في أغزر أشكاله، يتشكّل في المدينة. وإذا كانت المواهب الأولى تنمو في الريف وفي فضاء القرية وتترعرع، فإنّها لا تتخذ شكل الفاعل الحضاري إلاّ في المدينة، و«إذا أردت ترفض الفن فلك أن ترفض المدينة، كلاهما توأمان.. وإذا أردت الفن فعليك أن تعي المدينة.. الريف لا ينتج إلاّ الفولكلور» (١٣).

وعلى الرغم من أهمية فضاء المدينة وع... في الرواية العربية، فإنّ معظم الروائيين ... الذين يشكلون خطابهم السردي من داخ... الفضاء يدينونه، أو ينفرون منه، فهو ي... رواياتهم فضاء للاغتراب والاستلاب و... والقتامة، وجميع اللوثات المرضية، فض... المرء فيه إلى حريته وكرامته وكبريائه، ... غير نظيف في قيمه وعلاقاته المحكوم...

واصحاب النظريات السياسية. وتشير
الواقعية إلى أنّ نسبة لا يستهان
العالم العربي وروائييه ومثقفيه، قد
قصيرة في فضاءات
او قصيرة في فضاءات
وبعد خروجهم شكّلوا
وعمقا إنسانيا
أكثر نضجا،
متميزة.

فضاء المقهى

صور المقهى في الرواية العربية
وأشكاله ودلالاته، وإشاراته الرمزية،
أيضا، وتقسم المقاهي في
منها:
العربية الى عدة أقسام
وكبيرة واسعة،
ورئيسة
مقاه مركزية
خاصة، ترضي أذواق
جمالية
وزخرفة
المدن العربية الكبرى،
وتتوسط
فيها،
الرجال والنساء معا، ويغلب على هذا
النوع من المقاهي صفات نفسية وأخلاقية
خاصة جدا، فهم ارستقراطيو النزعة
والتعلم، غالبا ما تجمعهم المصالح
والاقتصادية الخاصة، ويصفهم
الروائي وصفا ساخرا، فهم انتهازيون
وسماسرة ومرابون، ورجال أعمال
الى الكرامة والشرف والعفّة، يتاجرون
ويمارسون الدعارة ويتعاطون
والمخدرات، ونفوذهم الاقتصادي
كبير جدا في مجتمعاتهم، ويمارسون
هو منكر، رجالا ونساء، ويمرأى ومسمع
السلطة هذه المدينة او تلك، لأنّ ثمّة
مشتركة بينهم وبين رجال مرموقين في
أعلى الهرم السياسي والاجتماعي. وتتركز هذه المقاهي في الروايات العربية التي تجري بعض حوادثها في مقاهي بعض المدن العربية الكبرى، ومنها: دمشق، وبيروت، والقاهرة، والرباط، والدار البيضاء، وتونس، والعديد من المدن الأوربية التي يزورها العرب، والتي اشار إليها الخطاب العربي ووصفها، ولعلّ أهم هذه المدن هي: باريس ولندن ومدريد وروما وموسكو، وبوخارست، وبودابست وغيرها. وتتوضع هذه المقاهي في الرواية العربية، في الشوارع المركزية الرئيسة في المدن الرئيسة التي يغلب عليها طابع الثراء والأبهة. وأحيانا في بهو الفنادق السياحية الرئيسة والكبرى.

(ب) مقاه خاصة بالرجال، ومحرّم عليها دخول النساء، وهي تشكّل لدى هؤلاء الرجال - أبطال الروايات- فسحات للحرية والهروب، الهروب من فضاء المنازل المغلقة والضيقة، وما يدور فيها من مكايد الزوجات والنساء، وجبروتهن واستبدادهن، وسعارهن الذي لا حدود له، المحكوم برغبة الامتلاك والسطوة وقهر الزوج، وطلبات الأولاد التي لا تنتهي، والهروب من الفضاء الاجتماعي الواسع بامتداداته، الضيق برؤيته وعاداته وتقاليده وأعرافه. وينشد الأبطال في فضاء هذه المقاهي بديلا موضوعيا من همومهم واستلابهم وفواجعهم، إذ يأخذون الشيشة، ويلعبون الورق والدومينو، وأحيانا تنفجر همومهم ومصائبهم على شكل صراخ حاد حينا، وعراك وحشي بالشتائم والألفاظ الجارحة تارة، وبالمدى والسكاكين والأيدي تارة أخرى. وأحيانا يأخذون الحشيش المخدر وغيره من المخدرات.

ويتسع فضاء هذه المقاهي أحيانا في بعض الروايات العربية ليصبح حانة في الوقت نفسه، يقدم فيها أنواع الخمور، وبخاصة الرخيص منها. ولعل الرواية السورية والمغربية والجزائرية والتونسية من اهم الروايات العربية التي تحتفي بنماذج هذه المقاهي.

(ج) مقاه خاصة بالنساء، ومحرم عليها دخول الرجال. تدخلها النساء هروبا من الفضاءات الاجتماعية المغلقة، ومن مشاكلهن الزوجية والعائلية الخاصة، وأحيانا النفسية المعقدة، ويبدو دخولهن أحيانا لغاية وظيفية، تتحدد بالثرثرة والانتقام من العالم، وذلك من خلال فضح عيوبه الداخلية والخارجية. وتتنوع النساء الداخلات في هذه المقاهي، فهن مطلقات هاربات من جحيم الأزواج، وهن مثقفات وأديبات أحيانا يطمحن إلى أن يكون العالم المحيط بهن أكثر نقاء ونظافة، وأكثر احتراما لعقولهن وثقافاتهن. وهن معلّمات ومدرسات وطالبات جامعيا ت أحيانا أخرى، وإذ يلذن بفضاء المقهى فإن ذلك يشكل هروبا من عناء أعمالهن الوظيفية، ومحاضراتهن العلمية، وهن مقاولات وتاجرات ونساء أعمال يفقن الرجال في قدراتهن المالية، ومكانتهن الاقتصادية. ويبقى حضور هذا النوع من المقاهي في الرواية العربية حضورا غير مركزي، إذ لا يسهم كثيرا في نمو السرد، وتشعبه، وتشكّل علاقاته، وخطاباته الفكريّة.

(د) مقاه خاصة بالمثقفين والأدباء والأديبات والفنانين التشكيليين، ومحبي الأدب وأنصاره ومتذوقيه، ويتسع هذا النوع من المقاهي في الرواية العربية، ليشمل أحيانا فضاء نوادي الصحافة، ونوادي اتحادات الأدباء والكتاب والأندية الأدبية.

وبشكل عام، وعلى الرغم من تعدد أشكال فضاء المقهى وصوره في الرواية العربية يمكن القول: إنّ أبرز الدلالات التي تشير إليها فضاءات المقاهي، والتي يبرزها السرد الروائي العربي «تحمل طابعا سلبيا يشي بما يعانيه الفرد من ضياع وتهميش، ومما يؤكد ذلك أن فضاء المقهى يكون مسرحا للعديد من الممارسات المنحرفة، سواء كانت دعارة أو قمارا أو تجارة مخدرات، أو حتى مجرد عطالة فكريّة مزمنة وتتكرر هذه الصور السلبية لفضاء المقهى في أكثر من رواية حتى توشك أن تصبح العصب الرئيسي الذي يحكم دلالته ويلتحم بها، فهي، ليست دلالة طارئة تأتي لخلخلة المألوف والسائد، وإنّما هي دلالة متأصّلة تندمج في بنية ذلك الفضاء وتجعل منه بؤرة للثرثرة واغتياب العالم، ومحطّة لتناقل الشائعات... كشكل من أشكال التعويض على مأساة الذات الفرديّة الممزقة» (٢٢). ■

(*) باحث وأكاديمي
youssefmoon@hotmail.com

مراجع

(١) انظر/ بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، ص ٢٩. وأخذ عن:
Grivel, Charles: Prodoction de l'interet romansque, E.D Mouton, Paris, 1973, P. 101.

(٢) انظر: ص ١٠٠-١٠١.

(٣) انظر: Mitterand, Henri: Le Discours du roman, P. O. F, 1980.P 84.

(٤) استشهد به عند: لحمداني، د. حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، آب ١٩٩١م، ص ٦٥.

(٥) د. صلاح صالح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، ص ٢٠.

(٦) لحمداني، د. حميد: بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ص ٥٢.

(٧) فوكو، ميشيل: السلطة، ترجمة د. عبد الأمير إبراهيم شمس الدين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص ٢٤.

(٨) بوتور، ميشال: بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد انطونيوس، منشورات عويدات، بيروت، باريس، الطبعة الثانية ١٩٨٢م، ص ٥٣.

(٩) وارين، اوستن؛ ويليك، رينيه: نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، منشورات المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٧٢م، ص ٢٨٨.

(١٠) شواي، فرانسواز: «السمانية وتنظيم المدن»، ضمن كتاب كتب: معنى المدينة، ترجمة د. عادل العوا، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص ١٥.

(١١) عبد الله، د. محمد حسن: الريف في الرواية العربية، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ١٤٣، ربيع الآخر ١٤١٠ هـ/ نوفمبر، تشرين الثاني ١٩٨٩م، ص ٨.

(١٢) جبرا، إبراهيم جبرا: ينابيع الرؤيا (دراسات نقدية)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، تموز، يوليو، ١٩٧٩م، ص ٨٠-٨١.

(١٣) نفسه، ص ٨٣.

(١٤) نفسه، ص ٨٦.

(١٥) د صبري حافظ، «حول محطة السكك الحديد لإدوارد الخراط»، مجلة الأقلام ا، بغداد، العدد ١١ن ١٢، عام ١٩٨٦م، ص ٧١.

(١٦) حسن عبد الله، د. محمد: الريف في الرواية العربية، ص ٨.

(١٧) المرجع السابق، ص ١٥.

(١٨) الزاهي، فريد: الحكاية والمتخيل، دار افريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، ص ٥٦.

(١٩) بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي، ص ٥٩-٦٠.

(٢٠) لاسكي، هارولد: الدولة في النظرية والتطبيق، ترجمة: كامل زهيري وأحمد نعيم، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٣م، ص ١٦٩.

(٢١) بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي، ص ٦١-٦٢.

(٢٢) بحراوي، حسن: بنية الشكل الروائي، ص ٩١.

الثقافية

٥٧/٥٨ السنة الحادية عشرة/ جمادى الآخرة . رجب
١٤٢٥هـ يوليو . اغسطس ٢٠٠٤م

ألف ليلة وليلة بين
المرجع الواقعي والتخيل
ص
57
مقال للدكتور يونس

بريطانيا: تسييس التعليم الجامعي

مواد علمية ممنوعة على مبتعثي العالمين العربي والاسلامي

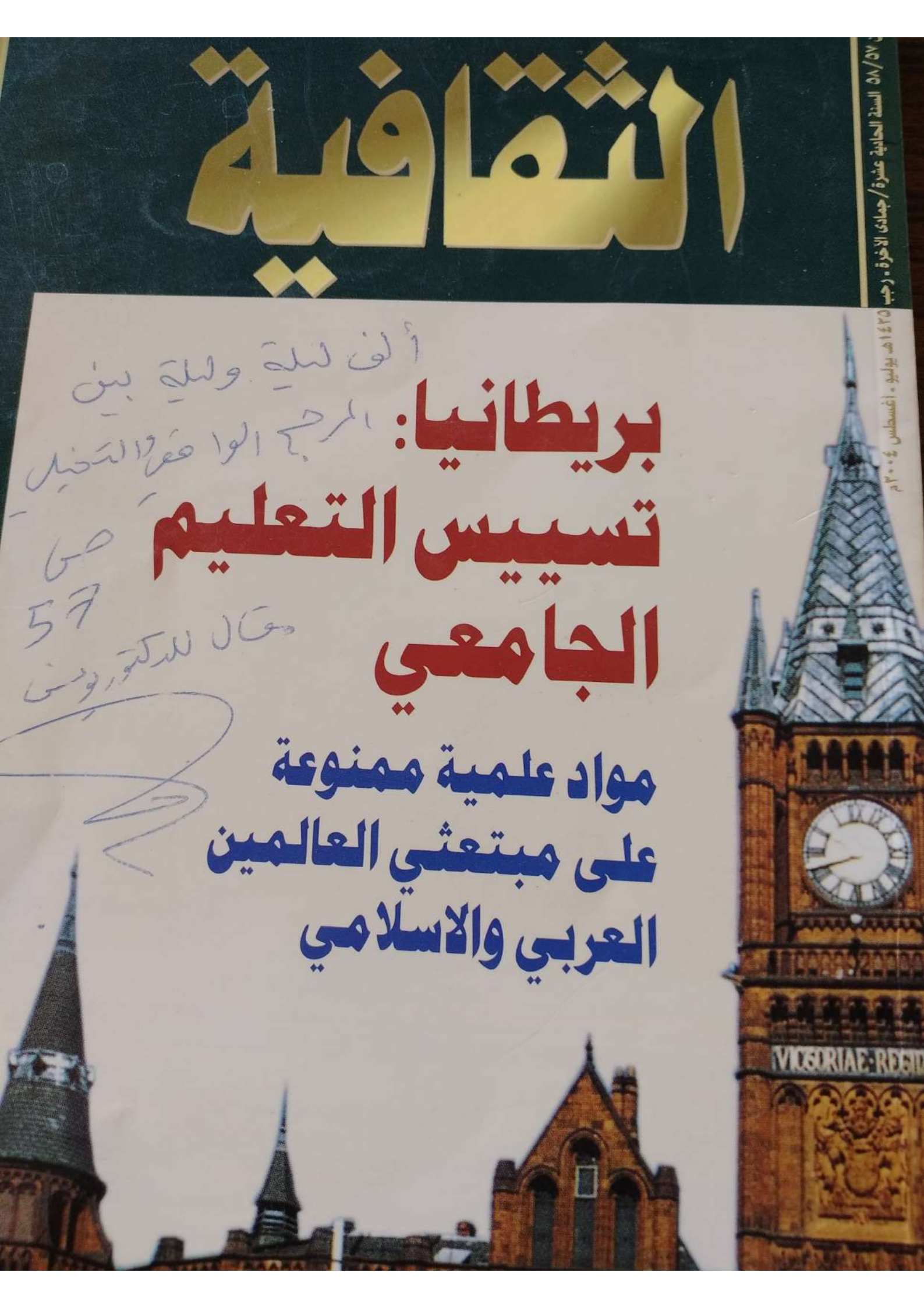

ألف ليلة وليلة بين المرجع الواقعي والتخيلي

د. محمد عبدالرحمن يونس

ما من عمل أدبي شعبي نال شهرة واسعة في آداب المجتمعات الإنسانية أكثر من ألف ليلة وليلة. وكثيرة هي الدراسات التي تناولت هذا العمل في جوانبه المتعددة، بوصفه نتاجاً معرفياً وحضارياً لكثير من الأمم والشعوب. ويمكن القول: إن حكايات ألف ليلة وليلة تعبر عن مخزون الذاكرة المعرفية الجمعية للمجموع الإنساني عبر رحلته التاريخية والحضارية. هذه الذاكرة التي عايشت تاريخ المجتمعات، وعاداتها وأحوالها، والتحولات الفكرية والسياسية لهذه المجتمعات في تطورها الحضاري. ومن هنا فإن السرد الحكائي في ليالي ألف ليلة وليلة ليس سرداً بعيداً عن الإيديولوجيا التي تشكل خلفية معرفية، يؤسس عليها الرواة مقولات أبطالهم الفكرية، وحركة هؤلاء الأبطال، وما يقومون به من أفعال، وليس هذا السرد بعيداً عن التاريخ والسياسة. وكل محاولة لدراسة حكايات ألف ليلة وليلة بعيداً عن بنية المجتمعات التي تتحدث عنها الليالي ستفرض علينا اعتبارها عملاً تخيلياً صرفاً، وبالتالي ستفقدنا المتعة الكامنة في السرد الحكائي السائد في مدن هذه المجتمعات، وفضاءاتها المتعددة، وعلاقاتها الإنسانية والطبقية التي يمكن أن تكون علاقات قد قامت فعلاً، في زمان تاريخي معين، وفي فضاء مكاني معروف.

وإذا كانت حكايات ألف ليلة وليلة تنهل من كثير من الأبعاد الأسطورية والخرافية، والأحلام البشرية الجمعية الجامحة للطبقات الوسطى والفقيرة، فإن ذلك لا ينفي أن تكون هذه الحكايات قد نهلت من بنية الواقع بعلاقاته وعاداته، ومكوناته الفكرية والرؤيوية، ولا ينفي أن تكون هذه الحكايات رصداً انثروبولوجياً لحضارة الجماعات البشرية بأزمنتها وأمكنتها، لأن هذه الأزمنة والأمكنة -وإن كان من المحتمل أن تكون تخيلية متشكلة بفعل الخبرات المعرفية للرواة الذين قرأوا كثيراً من معارف عصورهم والعصور التي سبقتهم أو حفظوها بعد أن سمعوها شفاهياً -قد تكون حقيقية، بل هي أقرب إلى الحقيقة منها إلى التخيل.

إن وضع اللمسات على الحدود الفاصلة بين ما هو واقعي وبين ما هو تخيلي وحلمي في ألف ليلة وليلة من الصعوبة بمكان، إذ لا يمكننا أن نحدد بدقة متى ينتهي الواقعي ومتى يبدأ التخيلي، لأن الواقعي في مدن ألف ليلة وليلة

المدن. فإما أن تكون قد اندثرت بفعل عوامل الطبيعة من زلازل وبراكين، وسيول وأنهار، وإما أن تكون قد تغيرت أسماؤها، بفعل التحولات التاريخية والجغرافية التي تعرضت لها قارات العالم وفق تشكلاتها الجديدة، وإما أن تكون مدناً قد تشكلت مورفولوجياً وجمالياً وفق رؤية الرواة الجمالية الخاصة، ومن خلال عمليات التخيل والحلم، أو من خلال المثاقفة الفكرية والحضارية بين ثقافة رواة الف ليلة وليلة وبقية الثقافات الأخرى، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن هؤلاء الرواة كانوا على قدر كبير من العلم والمعرفة، إذ اطلعوا على ثقافات الشعوب وعاداتها وتاريخها وأدبها، وعادات مدنها. وإما أن تكون هذه المدن قد خربت وتهدمت بفعل صيرورة التاريخ نفسه، وحركات الاضطراب والفتن والثورات المعارضة والحروب، وبالتالي تأسست مدن جديدة بدلاً منها، وبأسماء جديدة، وإما أنها انتهت بزوال سلطتها السياسية وقوة ملكها، لأن: «الأمصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها (...)، «و» الدولة إذا اختلت وانتقضت فإن المصر الذي يكون كرسياً لسلطاتها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه إلى الخراب..»(١).

ومن هذه المدن التي ذكرتها حكايات ألف ليلة وليلة، والتي تبدو مجهولة، أو التي لم تعد محتفظة بأسمائها في خارطة التسميات الجغرافية المعاصرة: مدينة النحاس(٢)، ومدينة اختيان الختن، والطيران، وجوهر تكني، وواق الواق، والمدن والجزر الكثيرة التي كان يصل إليها السندباد البحري، كمدينة الملك المهرجان، ومدينة القرود، وإقليم الملوك، وجزيرة السلاهطة، وتلك التي لا تأخذ اسماً، وهي معظم الجزر التي وصل إليها في رحلاته السبع، ومدينة أخرى، يبدو أن الراوي لا يعرف اسماً لها، إذ يقول عنها:

«والله لا أعرف للمدينة (...) اسماً ولا طريقاً»(٣). يضاف إلى ذلك مجموعة كبيرة أخرى من المدن المتخيلة التي تتوزع على حكايات ألف ليلة وليلة، والتي شكلها الرواة من خلال قراءاتهم الكثيرة في الأساطير والخرافات والحكايات الشعبية، ويبدو أن جميع مدن ألف ليلة وليلة الواقعية والمتخيلة غير المعروفة، باختلاف تشكيلاتها الاجتماعية وتوجهاتها الدينية، هي مدن موشاة بالسحر والأسطورة والغرابة، وقلما نجد مدينة في ألف ليلة وليلة إلا ولها سحرتها الخاصون، ومنجموها الذين يستشعرون الخطر قبل قدومه، ونساؤها

أو شرائع إنسانية او اخلاقية، من شانها ان تحمي مواطنيهم البسطاء من شرورهم واستبدادهم.

إن قسماً من مدن الف ليلة وليلة مدن واقعية معروفة عبر منها رجال التاريخ السلطويون فارضين رؤيتهم وقسوتهم، واستبدادهم المطلق بشعوبهم. والقسم الآخر مدن متخيلة شكلها عدة رواة منشعبو الثقافات، وينتمون إلى حضارات متعددة، متعاقبة، ومتجاورة زمنياً وتاريخياً.

إن حكايات الف ليلة وليلة تعد من بين اكثر النصوص الادبية الإسلامية والعربية تاثراً بالمجتمعات العربية والإسلامية، وبخاصة في عهد الدولتين الاموية والعباسية، بعلاقاتها السياسية والاجتماعية. فقد صورت هذه الحكايات عادات المجتمعات العربية والإسلامية، وانماط معيشتها، وعرجت على تركيبتها الطبقية والسياسية، ووقفت طويلاً عند مظاهر الترف واللهو والفجور التي انغمس بها كبار رجال السلطة ونساؤهم وابناؤهم، وعرجت على هموم الفقراء والمهمشين ومآسيهم في هذه المجتمعات، واشارت بشكل جري، إلى فساد الرجال والنساء في هذه المجتمعات المنفتحة حضارياً ومعرفياً على ثقافات الحضارات الأخرى المجاورة.

إذا كانت القراءة الإيديولوجية للنصوص الأدبية، بما فيها الحكائية، تعتمد كثيراً مفاهيم وقناعات مسبقة يؤمن بها الباحث، وبالتالي تجعل من النص المقروء «خطاب اطروحة»، قبل أن يكون خطاباً جمالياً وإبداعياً، وتعمد إلى قسر هامة النص أمام هذه المفاهيم، بدلاً من أن تضيء مكوناته، فان نصوص الف ليلة وليلة هي نصوص لا تستطيع أن تتخلى عن ايديولوجيتها، لأننا أما رواة مؤدلجين مع مدنهم وحكامهم أحياناً، وضد هذه المدن، وهؤلاء الحكام أحياناً أخرى، ومن هنا فإن قراءات كثيرة لهذه النصوص في الدراسات العربية المعاصرة قد حملت بعض معطيات المنهج الإيديولوجي. وإن بدت بعض هذه المعطيات على هذه القراءات، فإنها -في معظمها- ليست مقصودة بذاتها، أو مدروسة بشكل مسبق، بل هي قد تظهر لأن لها قدرة على اضاءة كثير من جوانب ألف ليلة وليلة العربية والهندية والفارسية. وقد تظهر انطلاقاً من نصوص ألف ليلة وليلة، التي تحمل في فضاءاتها السردية مزيداً من المقولات، والأطروحات الايديولوجية. وذلك تأسيساً على واقعية كثير من هذه الحكايات وبعدها في الزمان التاريخي والمكان الواقعي. ■

* محاضر سوري في جامعة الدراسات الأجنبية في بكين

الثقافية

العدد ٢٩٨ / السنة الثالثة عشرة / ربيع الأول - ربيع الآخر ١٤٢٩هـ / مارس ٢٠٠٨م

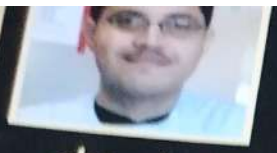

مبتعث يحطم الأرقام القياسية

جوهرية الجهاد الثقافي / السياسي

الرقابة والتعتيم في الإعلام الأمريكي

خيمة من حـ
لمستشرق بـ

بومة
والمرك

التعليم العالي:

النفط السعودي الجديد

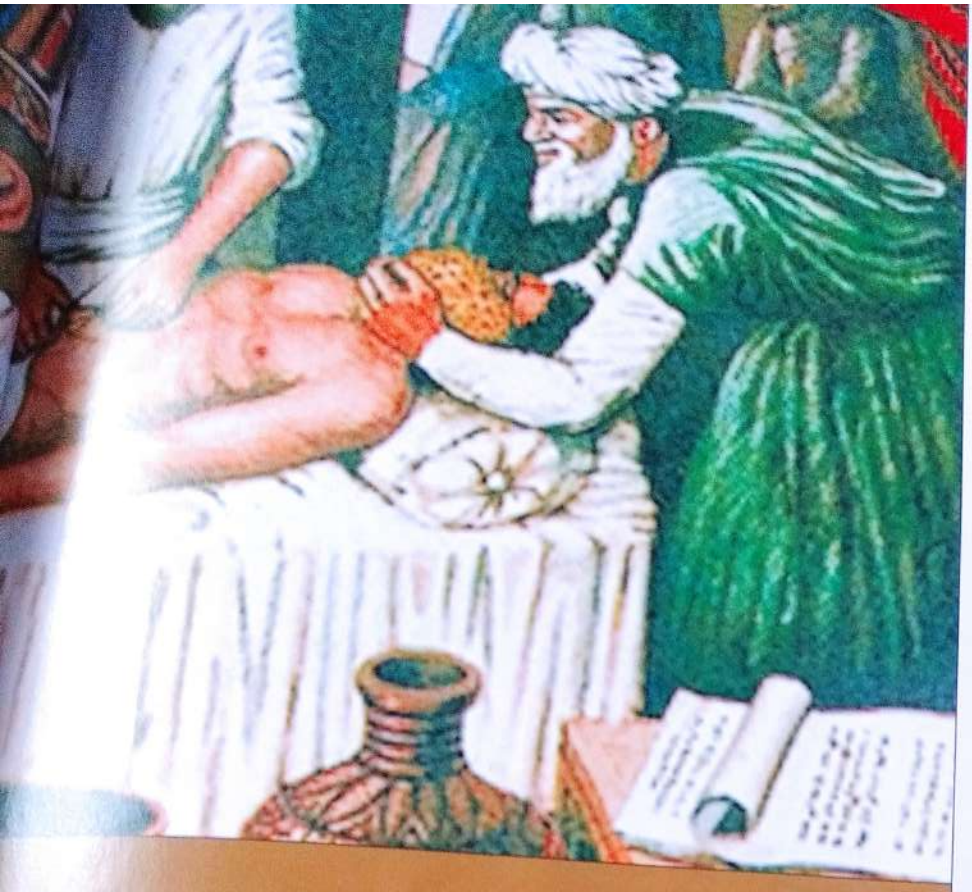

العلوم الطبية والصيد

د. محمد عبد الرحمن يونس

شهدت المدينة العربية الإسلامية في عصرها العباسي ازدهاراً معرفياً في شتى المعارف العلمية، سواء أكانت نظرية أم تطبيقية، وكان العرب والمسلمون في هذه المدينة من أشد شعوب الأرض طلباً للمعرفة ورغبة في الإفادة منها في حياتهم. وكان في مقدمة العلوم العلمية التي ظفرت بنصيب ملحوظ من اهتماماتهم، الطب ثم الفلك وسائر فروع المعرفة التي تقوم على خدمتهما. (١)

وبلغ الطب العربي ازدهاراً واضحاً في عهد الدولة العباسية، وتحديداً في عهد الخليفة هرون الرشيد، وعهد ولده عبد الله المأمون. وقد أولى الخليفة الرشيد اهتماماً كبيراً بالطب وتاريخه، وحض على ترجمته، ففي عهده ترجم طبيبه الماهر يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م) كثيراً من الكتب الطبية القديمة التي جلبها من أنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم، وتلك التي جمعها العرب المسلمون من البلاد التي فتحوها(٢).

ونظراً للمثاقفة الحضارية بين العرب وغيرهم من الشعوب، يبدو من الطبيعي أن يرتكز الطب العربي على الطب اليوناني المترجم بوساطة اللغات السريانية والآرامية والعربية. فعلى المعطيات الطبية اليونانية استند الأطباء اليهود والنصارى والمسلمون، وضموا إلى معارفهم الطبية ما قدمه لهم الشرق القديم. أما المصنفات الطبية التي وصلت من اليونان إلى سورية وتُرجمت فيها، فإنها سرعان ما نُقلت إلى المراكز البعيدة في بغداد والقاهرة وقرطبة، حيث ترجمها اليهود الأسبان إلى اللاتينية (٣).

وكان للأطباء المسلمين باع طويل في تاريخ المكتشفات الطبية التي أثرت تأثيراً حاسماً في مسار الحضارة الإنسانية في العصور الوسطى، فقد اكتشف الطبيب أبوبكر محمد بن زكريا الرازي) ت ٣١٣هـ/ ٩٢٥م)، المسمى عند أهل الغرب (رازيز) (٤) Rhazis خيوط الجراحة من أمعاء الحيوان، والتي أسهمت في تطوير الجراحة الداخلية .(٥) واكتشف الطبيب أبو علي الحسين بن عبد الله (ابن سينا، ت ٤٢٩هـ/ ١٠٣٧م) المعروف بـ (أفيسينيا) لدى الغرب، (٦) Avicenna مصل التخدير الذي استخلصه من الأعشاب، والذي كان له الفضل في تطور عمليات الجراحة الكبيرة والطويلة .(٧) أما عالم البصريات أبو علي الحسن بن الهيثم (ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٩م)، فقد ألف كتاباً في البصريات، وسماه بـ«علم المناظر»، ثم أصبح – بعد أن تُرجم إلى اللاتينية – كتاباً مدرسياً يُدرس في أوروبا في العصر الوسيط حتى عام ١٢١٣م.(٨) وقد توصل ابن الهيثم إلى صناعة أول نظارة طبية للقراءة في التاريخ، وقد قدمت هذه النظارة أعظم خدمة لضعاف البصر. (٩)

أما الطبيب علي بن أبي الحزم بن النفيس الدمشقي (ت ٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م)، فقد «كان أول من اكتشف الدورة الدموية الصغرى وفهم تركيبة الرئة والأوعية الشعرية، وميز بين الشرايين والأوردة فيها». (١٠) هذا وقد عُرف عن ابن النفيس تفوقه على علماء عصره والعصور التي سبقته في فهم المبادئ الأساسية للدورة الشريانية، فقد أوضح أن الدم كان يُطهر في الرئتين حيث يخضع لعملية تكرير عن طريق احتكاكه بالهواء الذي يأخذه الجسم من الجو الخارجي. والحق أن اكتشافاته تقدمت اكتشافات العلماء الأوربيين بثلاثة قرون (١١).

وقد عُرف عن الأطباء العرب أنهم تفوقوا في علم الجراحة على الشعوب الأخرى، ومنها جراحات النساء والتوليد. وقد قام الطبيب أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي (ت ٤٩٩هـ/ ١١٠٦م)، الذي يُعد من كبار الجراحين العرب، باستنباط آلات جراحية كثيرة (١٢)، ساعدته في جراحة تفتيت رأس الجنين متى كان ضخماً، يُضاف إلى ذلك أنه اخترع م
للمهبل، وألف مع غيره من الأطباء، من
«ابن سينا»، كتباً مهمة في الأورام ا
(١٣). وقد ترك الطب العربي للبش
موسوعة عربية في الطب، وما زالت با
الآن، وهي كتاب فردوس الحكمة، لمؤل
سهل بن ربن الطبري (ت ٢٤٦هـ/ ٦١
لمع نجمه نحو ٢٣٦هـ/ ٨٥٠م، وق
الموسوعة تفوق كل ما عداها
النواحي العلمية. (١٤) ومن هنا ي
إن أهمية علم الطب في التراث
والعلمي الذي تركه العرب والمسل
«لا تضارعه أهمية أي فرع آخر
(١٥).

ونتيجة لازدهار العلوم الطب
الإسلامية كان من الطبيعي أن
المدينة مرفق معماري يأوي ال
الأطباء الذين يعالجون هؤلا
اتفق المؤرخون على تسمي
بـ«البيمارستان»، أو «المارس
البيمارستان شكلاً متطوراً

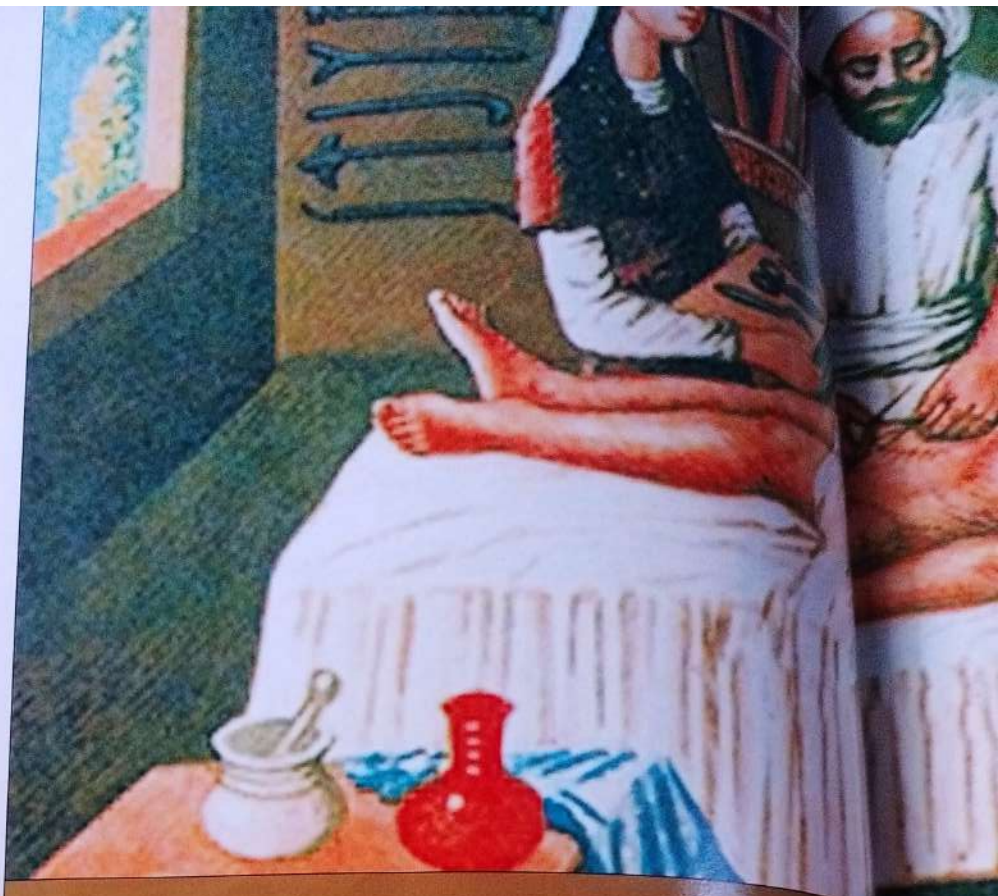

المدينة العربية الإسلامية

إن المدن الإسلاميّة الكبرى هي التي كانت تشاد فيها البيمارستانات (١٩) المتخصّصة في علاج الحالات المستعصية، نظراً لتطوّر المعرفة الطبيّة فيها. فلقد شيدت البيمارستانات في مدينة دمشق، كونها عاصمة مركزيّة للدولة العربيّة الإسلاميّة في عهد بني أميّة، وكانت كثيرة في هذه المدينة، في حين نجد -على سبيل المثال لا الحصر- أن هذه البيمارستانات كانت قليلة في مدينة القدس كونها أقلّ شأناً مركزيّاً وسياسيا من دمشق، إذ يمكن اعتبارها وفق تسميات المؤرّخين «قَصَبة»، وفي الاصطلاح الإداري الإسلامي بمعنى عاصمة لأحد الأقاليم الجهويّة التابعة للدولة الإسلاميّة (٢٠).

ولقد كانت بغداد العبّاسيّة قبلةً لعشّاق الطبّ والمعرفة، إذ نشر العبّاسيون العلوم الطبيّة. وأسّسوا المدارس الطبيّة، والبيمارستانات، ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبيّة، في مواسم الحجّ، والتي يجتمع فيها الأطبّاء من البلاد الإسلاميّة كافّة، حيث يعرضون نتائج أبحاثهم. وقد غدت بغداد في الشرق، وقرطبة في الغرب من أهمّ المراكز الثقافيّة الطبيّة في العالم الإسلامي (٢١). وعُرف عن قادة بغداد العبّاسيّة اهتماماتهم بإنشاء البيمارستانات، فقد أقام البرامكة بيمارستاناً في عهد الخليفة هرون الرشيد، وأسندوا رئاسته إلى الطبيب ماسويه، ثمّ إلى ابنه يوحنّا. وازدادت البيمارستانات في الدولة العبّاسيّة زيادة واضحة، حتّى بلغت سنة ٣٠٤هـ/ ٩١٦م في عهد الخليفة العبّاسيّ المقتدر بالله، خمسة، أشرف على إدارتها الطبيب الشهير سنان بن ثابت (٢٢)، وإليه يرجع الفضل في إنشاء بيمارستانين كبيرين، سمي الأول البيمارستان المقتدريّ نسبة إلى الخليفة العباسيّ المقتدر بالله بن المعتضد (٢٩٥-٣٢٠هـ/ ٩٣٢-١٠٠٨م)، الذي أنفق عليه من ماله الخاصّ. أما الثاني فكان تحت رعاية أمّ المقتدر (٢٣).

ولم تكن هذه البيمارستانات دُوراً لعلاج مرضى الأمراض المستعصية فحسب، بل كانت مدارس تُدرّس فيها العلوم الطبيّة، وأصبحت مؤسسات رسميّة ومن المعالم الأساسيّة للمدن الإسلاميّة اعتباراً من القرن الرابع الهجري. وقد انتشرت في العراق وفارس والشام ومصر، وكان الكثير منها يعتمد على الأوقاف في نفقاته، سواء للمرضى أو للأطبّاء أو للطلبة (٢٤).

لقد كانت البيمارستانات في المدينة الإسلاميّة تشتمل على قاعات عديدة لمعالجة عدد من الأمراض المتنوّعة، فكان فيها قاعة لمرضى الحميّات، وأخرى للرمد، وثالثة للجراحة، ورابعة لمرضى الإسهال، وقد زُوّدت بمطبخ لتجهيز طعام المرضى. وكان فيها موضع للأدوية والأشربة (٢٥) يمكن أن يحل محل الصيدلية في المستشفيات المعاصرة. وكان للمصابين بالأمراض العقليّة نصيب من الرعاية في المدينة الإسلاميّة (٢٦)، إذ خُصصت لهم أقسام في البيمارستانات الكبرى، وربّما أنشئت مصحّات خاصّة بهم. وقد أشار أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي (ت ٣٢٧هـ/ ٩٤٠م) في كتابه العقد الفريد، إلى وجود بيمارستان خاص بالمجانين في جنوب بغداد، وأشار إلى أنّ بيمارستان أحمد بن طولون (ت ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م) في القطائع بمصر، قد ضمّ قسماً خاصاً بذوي الأمراض العقليّة. وقد أشار الرحالة ابن جبير إلى أنّ بيمارستان دمشق كان به قسم خاصّ لهؤلاء المرضى، وأشار أيضاً إلى أنّ البيمارستان الذي عاينه بالقاهرة كان فيه مقاصير عليها شبابيك الحديد، وقد اتّخذت محابس للمجانين الذين عُيّن لهم من يتفقّد أحوالهم كلّ يوم، ويقابلها بما يصلح لها، ولقي هؤلاء المرضى رعاية خاصّة في المدينة الإسلاميّة، إذ خُصّص لكلّ واحد منهم مرافق يأخذه باللين والرفق ويصحبه في الحدائق الجميلة، ويسمعه ترتيلاً هادئاً من آي الذكر الحكيم، ليطمئنّ به قلبه وتهدأ نفسه (٢٧).

وإذا كانت هذه البيمارستانات التي تعالج الأمراض المتعددة، ومنها النفسيّة والعقليّة، قد

انتشرت في المدينة الإسلاميّة، فإنّه لا بدّ من وجود صيدليّات تؤمّن الأدوية لهذه البيمارستانات، سواء أكانت هذه الصيدليّات داخلها أم خارجها في شوارع المدينة. وقد عُرف عن العرب أنّهم من أوّل الشعوب التي اهتمّت بتحضير العقاقير والأدوية، وقد بحثوا عنها في البلاد البعيدة، فأحضروها من الهند والصين، واكتشفوا الكثير منها، وكانوا روّاداً في علم النبات (٢٨) واستخلاص ما ينفع منه، وطوّروا علم تركيب الأدوية، وفتحوا الصيدليّات في المدن، فاقتبس طرقهم الصيادلة اللاحقون (٢٩).

وقد كان للأطبّاء والصيادلة ثياب خاصّة يرتدونها، وهم على رأس عملهم، وتميّزهم عن غيرهم من بقيّة أفراد المجتمع. وهذه حال حضاريّة تدلّ على أنّه كان هناك نوع من التنظيم للمهن والحرف في المدينة الإسلاميّة. هذا وقد شهدت المدينة العربية الإسلامية تطوّرا كبيرا في صناعة العقاقير الطبيّة، فقد كان للمسلمين باع طويل في كشف الكثير من الأدوية المستخلصة من الأشجار والنباتات، و«في مقدمتها الكافور (٣٠)، والصندل (٣١)، والرواند، والمسك المرّ (٣٢)، والتمر الهندي(٣٣)، والحنظل (٣٤)، وجوز الطيب والقرفة (٣٥)، وغيرها. كما ابتدعوا صنوفاً من الشراب والكحول والمستحلب والخلاصة العطريّة ونحوها» (٣٦). ■

الهوامش والمراجع

(١) الطويل، د. توفيق: في تراثنا العربي الإسلاميّ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد السابع والثمانون، الطبعة الأولى، جمادى الآخرة ١٤٠٥هـ/آذار (مارس)، ١٩٨٥م، ص ٩٦.

(٢) نادر، د. البير نصري: في شرح كتاب «أبو نصر الفارابي – كتاب الجمع بين رأيي الحكيمين»، دار المشرق، بيروت، الطبعة الرابعة، دون تاريخ، ص ٥٠–٥١.

(٣) الخازن، د. وليم: الحضارة العباسيّة، دار المشرق، بيروت، الطبعة الثانيّة، ١٩٩٢م، ص ١١٩.

(٤) بلسنر، مارتن: Plessner,M: «العلوم الطبيّة والطبّ»، في: تراث الإسلام، تصنيف جوزيف شاخت وكليفورد بوزورث، ترجمة د.حسين مؤنس وإحسان صدقي العمد، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، «سلسلة عالم المعرفة»، العدد ٢٣٤، الطبعة الثالثة، صفر ١٤١٩هـ/حزيران (يونيو)، ١٩٩٨م، الجزء الثاني، ص ١٤٩.

(٥) الفنجري، د. أحمد شوقي: العلوم الإسلاميّة، مؤسسة الكويت للتقدّم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٨٥م، الجزء الثالث، ص ٦٦.

(٦) بلسنر، مارتن: «العلوم الطبيّة والطبّ»، ص ١٦٥.

(٧) الفنجري، د. أحمد شوقي: العلوم الإسلاميّة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، الطبعة الأولى، الجزء الثالث، ص ٦٦.

(٨) العلايلي، عبد الله؛ وآخرون: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٨٠م، ص ٧٣٥.

(٩) الفنجري، د. أحمد شوقي العلوم الإسلاميّة، ص ٦٦.

(١٠) نخبة من أساتذة الجامعات: «العلوم الطبيّة عند العرب»، في: موسوعة بهجة المعرفة – مسيرة الحضارة، إشراف الصادق النيهوم، الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، طرابلس/ليبيا، طبعة إيطاليا، ١٩٨٢م، المجلد الأول، المجموعة الثانية، ص ٤٠١.

(١١) لاندو، روم: الإسلام والعرب، تعريب منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، كانون الأول ١٩٧٧م، ص ٢٦٤.

(١٢) المنجد في الأعلام، ص ٣٤٠.

(١٣) الطويل، د.توفيق: في تراثنا العربي الإسلامي، ص ١٠٥.

(١٤) بلسنر، مارتن: «العلوم الطبيّة والطبّ»، ص ١٦٤.

(١٥) م س، ص ١٦٣.

(١٦) المارستان: لفظة فارسيّة تعني دار المرضى، المنجد في اللغة، معلوف، لويس، صورات اسماعيليان، طهران/ دار المشرق، بيروت، الطبعة الحادية والعشرون، كانون ي ١٩٧٣م، مادة: مرس، ص ٧٥٥.

ويذكر فؤاد شمس الدين نقلاً عن الموسوعة الإسلاميّة "L-Encyclopedie de I_Is"، أنّ البيمارستان (بفتح الراء وسكون السين) لفظة فارسيّة تقسم إلى قسمين: ر» وتعني المريض أو المصاب، و«ستان» وتعني المكان واختُصرت الكلمة مع الأيام ح مارستان.

ظر: «المدينة العربية من المرفق إلى الطراز»، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، المجلد العدد العاشر، أيار/حزيران ١٩٩١م، ص١٢٧.

) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدّمة ابن خلدون، تحقيق د.علي عبد الواحد دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، الطبعة الثالثة، محرم١٤٠١ هـ/١٩٨٠م، ثالث، ص١١٤٣.

) مقدّمة ابن خلدون، ٢/٩٥٩ ـ ٩٦٠.

) وتشير الأبحاث التاريخيّة إلى أنّ من بنى البيمارستانات في الدولة الإسلاميّة هو الأمويّ الوليد بن عبد الملك (٨٦ ٩٦هـ/٧٠٥ ـ ٧١٥م)، فقد بنى في دمشق سنة ٧٠م مشفى خُصّص للمجذومين، وكان يقع بالقرب من الباب الشرقي لمدينة دمشق. د. محمد عبد الستار: المدينة الإسلاميّة،المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ١٢٨، الطبعة الأولى،آب (أغسطس) ١٩٨٨م، ص ٢٤٩). ويذكر كمال الدين موسى الدّميري أنّ الخليفة الوليد بن عبد الملك اهتمّ بالمصابين بمرض الجذام، والعميان، «وقال لا تسألوا الناس وأعطى كل مُقعَد خادماً وكلّ أعمى قائدا». (حياة كبرى، دون محقق، دار الألباب، بيروت/ دمشق، دون تاريخ، ١/٨٢).

الولي، طه: «المدينة الإسلاميّة»، في: مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، ينة القومية للبحث العلمي، طرابلس (ليبيا)، أكتوبر/نوفمبر، ١٩٨٢م، العدد التاسع والعشرون، ص ١١٥.

(٢١) حسن، د.حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي (العصر العباسي الثاني في الشرق ومصر والمغرب والأندلس)، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الثالثة عشرة، ١٩٩١م، ٤/٤٠٤.

(٢٢) سنان بن ثابت: (أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرّة، ت ٣٣١هـ/ ٩٤٣م): طبيب صابئي من أصل حرّاني. نشأ ببغداد. رئيس الأطباء في عهد الخليفة العباسيّ المقتدر. عمل في خدمة الخليفة القاهر بن المعتضد (٣٢٠–٣٢٢هـ / ٩٣٤-٩٣٢م).

- المنجد في الأعلام، ص ٣٦٧.

(٢٣) عاشور، د.سعيد عبد الفتاح: المرأة والمؤسسات الاجتماعيّة في الحضارة العربية، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة (تونس)، طبعة ١٩٩٤م، ص ٦٠.

(٢٤) نخبة من أساتذة الجامعات: «العلوم الطبيّة عند العرب»، في: موسوعة بهجة المعرفة – مسيرة الحضارة، ص ٤٠٠.

(٢٥) عثمان، د.محمد عبد الستّار: المدينة الإسلاميّة، ص ٢٥٠.

(٢٦) يشير الدكتور علي زيعور إلى أنّ المدينة الإسلاميّة احتوت على مؤسسة خاصّة لمعالجة المرضى العقليين (الذهانيين)، والمرضى النفسيين (العصابيين)، وكانت تحمل اسم (البيمارستان)، وأنّ هذه المدينة كانت رحومة بالطفل والعجائز، والمصابين بالأمراض المزمنة.

- «مكانة الصحة النفسيّة والعلاج النفسي في علم المدن الإسلاميّة»، مجلة الاجتهاد، دار الاجتهاد، بيروت، السنة الثانية، العدد السادس، ربيع ١٩٩٠م / ١٤١٠هـ، ص ١٢٠.

(٢٧) عن / عاشور، د.سعيد عبد الفتاح: «الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلاميّة»، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، أبريل، مايو، يونيو، ١٩٨٠م، ص ١١٥.

(٢٨) لقد كان التقدم الذي أحرزه العرب في ميدانين من ميادين الطبّ، في الكيمياء وعلم النبات، لا يقلّ عن التقدّم الذي كانوا قد أحرزوه في الطبّ نفسه. ويعتبر جابر بن حيّان (ت١٩٩هـ/ ٨١٥م)، الذي بلغ أوج عبقريته العلميّة عام ١٥٧هـ/ ٧٧٥م، الأب الحقيقي لعلم الكيمياء الإسلامي، إذ أصبحت رسائله في الكيمياء، حوالي القرن الرابع عشر للميلاد (الثامن للهجرة)، أكثر التصانيف أثراً في آسية وأوروبة، وكان علماء الكيمياء المسلمون في كلّ مكان يعدّون جابراً أستاذاً لهم.

- حتّي، د. فيليب: الإسلام منهج حياة، تعريب د. عمر فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، آذار ١٩٨٣م، ص ٢٢٩–٢٣٠.

(٢٩) الخازن، د.وليم: الحضارة العباسيّة، ص ١٢٠.

(٣٠) الكافور: شجرة من فصيلة الغاريّات مهدها الأصلي جنوب الصين، أوراقها دائمة وأزهارها ضاربة إلى الصفرة، يستخرج منها مادّة عطريّة تستعمل في الطبّ.

- المنجد في اللغة، مادة: كفر، ص ٦٩١.

(٣١) الصندل: جنس شجر هنديّ، أبيض الزهر، خشبه طيّب الرائحة، يحمل ثمراً من عناقيد وله حبّ أخضر. وخشب الصندل من الأدوية القلبيّة.

(٣٢) المسك: جنس زهر من فصيلة النرجسيّات، مكسيكيّ الأصل، تتجمع أوراقه عند القاعدة. أزهاره بيضاء شائكة لها رائحة ذكيّة جداً.

- م س، مادة: مَسَك، ص ٧٦٢.

(٣٣) التمر الهندي: شجر كبير، أصله هندبي، ثمّ زرع في أكثر البلدان الحارّة. تستعمل ثماره كمسهّل، ويُستعمل جذعه للقبض. زهره مفيد ضدّ هيجان الكبد، وخشبه جيّد للغاية.

- م س، مادة: تَمَر، ص ٦٤.

(٣٤) الحنظل: نبات يمتدّ على الأرض كالبطيخ لكنّه أصغر منه جداً وهو سام. يستعملونه في الطب، ويضرب المثل بمرارته، فيقال: «أمرّ من الحنظل».

- م س، مادة: حنظ، ص ١٥٨.

(٣٥) القرفة: / القشرة /: جنس شجر من فصيلة الغاريّات مهده الأصلي جزيرة سيلان. أوراقه بيضويّة الشكل، يزرع في البلدان الحارّة. يُستخرج من قشرة أغصانه الفتيّة مطيّب حادّ الطعم. هو التابل المعروف.

- المنجد في اللغة، مادة: قَرَفَ، ص ٦٢٢.

(٣٦) الطويل، د.توفيق: في تراثنا العربيّ الإسلاميّ، ص ١١٢. ■

الثقافية

مكة المكرمة..
المدينة الفاضل

الشرق العر
الفن البري

ابن الـ
شاعـ

قـ
و

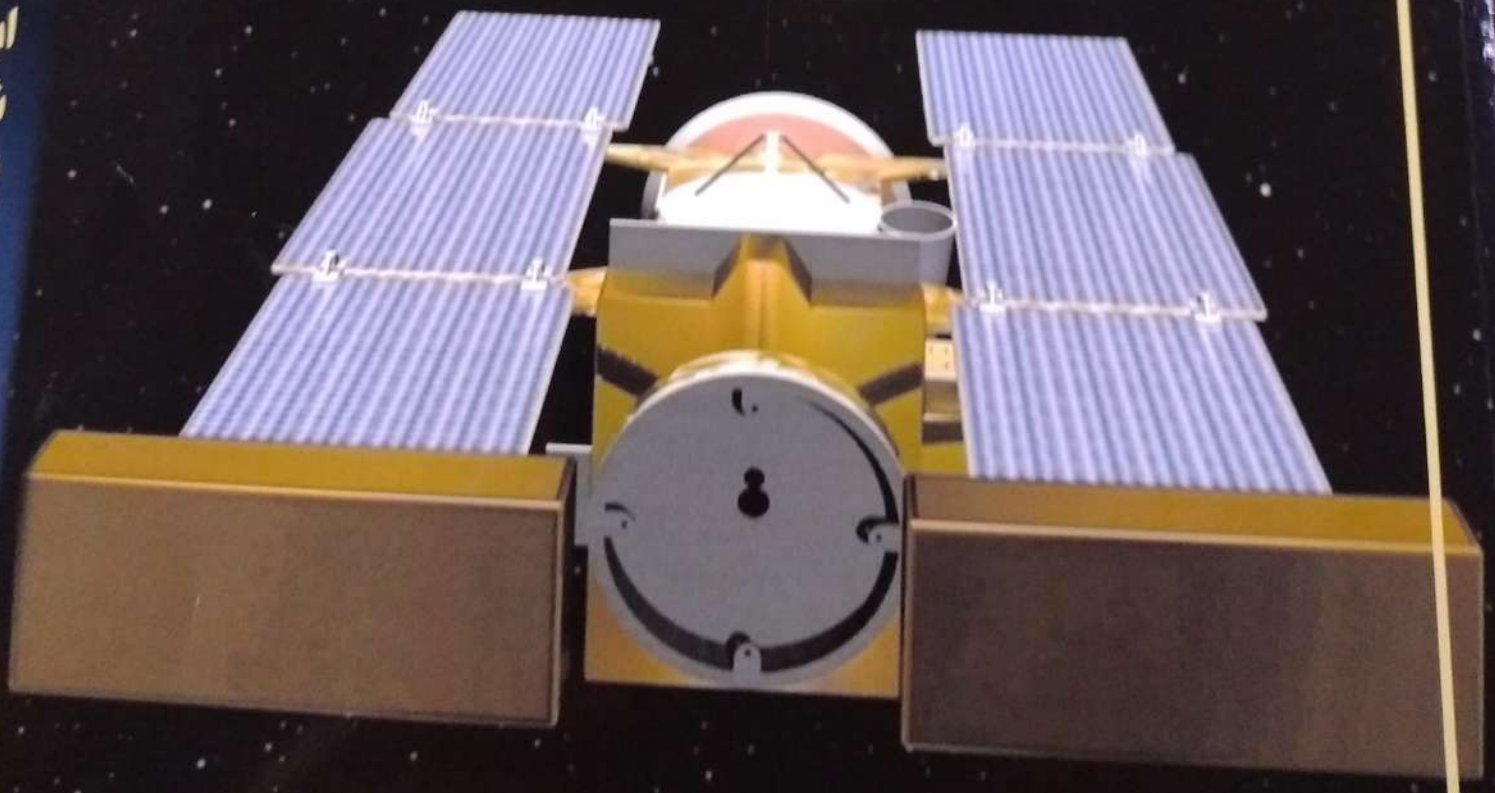

الابداع العلمي السعودي..

البصرة..عبقرية التاريخ

● لمحة تاريخية عـ

د. محمد عبد الرحمن يونس
ـ سوريا

إنّ للموقع الجغرافي لمدينة من المدن، أهمّيّة كبيرة في تاريخ هذه المدينة، وفي أنماط العيش فيها، وفي تفاعلاتها الحضاريّة والمعرفيّة والتجاريّة مع المدن التي تحيط بها. فالمدن ذات المواقع الجغرافية المتميّزة، تلعب دوراً كبيراً في أحداث التاريخ وصيرورته، كون هذا التاريخ يتعايش مع هذه المدن، ويخطّ حوادثه، وحركات الأشخاص، ثم يحدد دورهم في صناعته.

وقد أسهم موقع البصرة الجغرافيّ في أن تأخذ ـ تاريخياً ـ أدواراً مهمّة، في السياسة والاقتصاد، والفكر والفن والأدب، والعمران. فالبصرة من أهمّ الموانئ الثلاثة على الخليج العربي،التي أسهمت في تطوّر التجارة البحرية، وهي: سيراف على الشاطئ الشرقي من الخليج، والبصرة على الساحل العراقي في الشمال، ومسقط على الساحل العُماني في الجنوب (١). وقد كان العرب يسمّون البصرة قبل التمصير أرض الهند، ويسمّون بحرها بحر الصين، ويرجع ذلك إلى أنّها كانت منتهى التجارة البحريّة القادمة من الصين والهند، وكانت تجارة ناشطة منذ قرون تسبق الإسلام (٢) وتحدد الجغرافيا القديمة أنّ طول البصرة أربع وستون درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة، وهي في الإقليم الثالث (٣). وسُمّيت بالبصرة لأنّ فيها حجارة سوداء صلْبة. وذكر الشرقي بن القطامي(٤): «أنّ المسلمين حين وافوا مكان البصرة للنزول بها نظروا إليها من بعيد وأبصروا الحصى عليها، فقالوا: » إنّ هذه أرض بَصرَة، يعنون حَصْبة، فسمّيت بذلك ».

مُصِّرَت البصرة عام ١٤ هـ/٦٣٥ م، بأمر من الخليفة عمر بن الخطّاب، بعد أن تمّ إخراج الساسانيين(٥) نهائياً من العراق (٦)، وذلك لأنّ عُتْبَة بن غَزْوان (٧) عندما شارك في فتح العراق، وبعد معركة القادسيّة، توجّه إلى الجنوب لتطهيره من الساسانيين، وعسكر في موضع قريب من شطّ العرب (٨)، وكتب إلى الخليفة عمر يستأذنه في تمصير البصرة قائلاً: «إنّه لا بدّ للمسلمين من منزل إذا أشتى شَتَوا فيه وإذا رجعوا من غزوهم لجأوا إليه. فكتب إلى عمر: أن ارتدْ لهم منزلاً قريباً من المراعي والماء واكتب إليّ بصفته،فكتب إلى عمر: إنّي قد وجدت أرضاً كثيرة القَضّة في طرف البر إلى الريف ودونها مناقع فيها ماء وفيها قَصَباء» (٩) وعندما وصلت الرسالة إلى عمر بن الخطّاب،قال:(١٠) «هذه أرض بصرة قريبة من

عتبة بن غزوان) أن انزلها».

ويذكر المؤرّخ علي بن الحسين المسعودي (١١)، أنّ عتبة بن غزوان إنّما خرج إلى البصرة من المدائن بعد فراغ سعد بن أبي وقّاص (١٢) من حرب جَلُولاء وتكريت، وأنّه قدم إليها وهي يومئذ تُدعى أرض الهند، وفيها حجارة بيض فنزل موضع الخُرَيبة، ومصّرها في ربيع سنة ست عشرة للهجرة، وبنى دار إمارتها دون المسجد في الرحبة التي يقال لها رحبة بني هاشم، وكانت تسمى الدهناء، وفيها السجن

والديوان وحمّا
ثم شهدت ال
يتناسب مع
الشوارع الر
الشارع الرئ
شارع من الش
الأزقّة فكان
في هذا التخ
لمربط خيلها
متلاصقة (

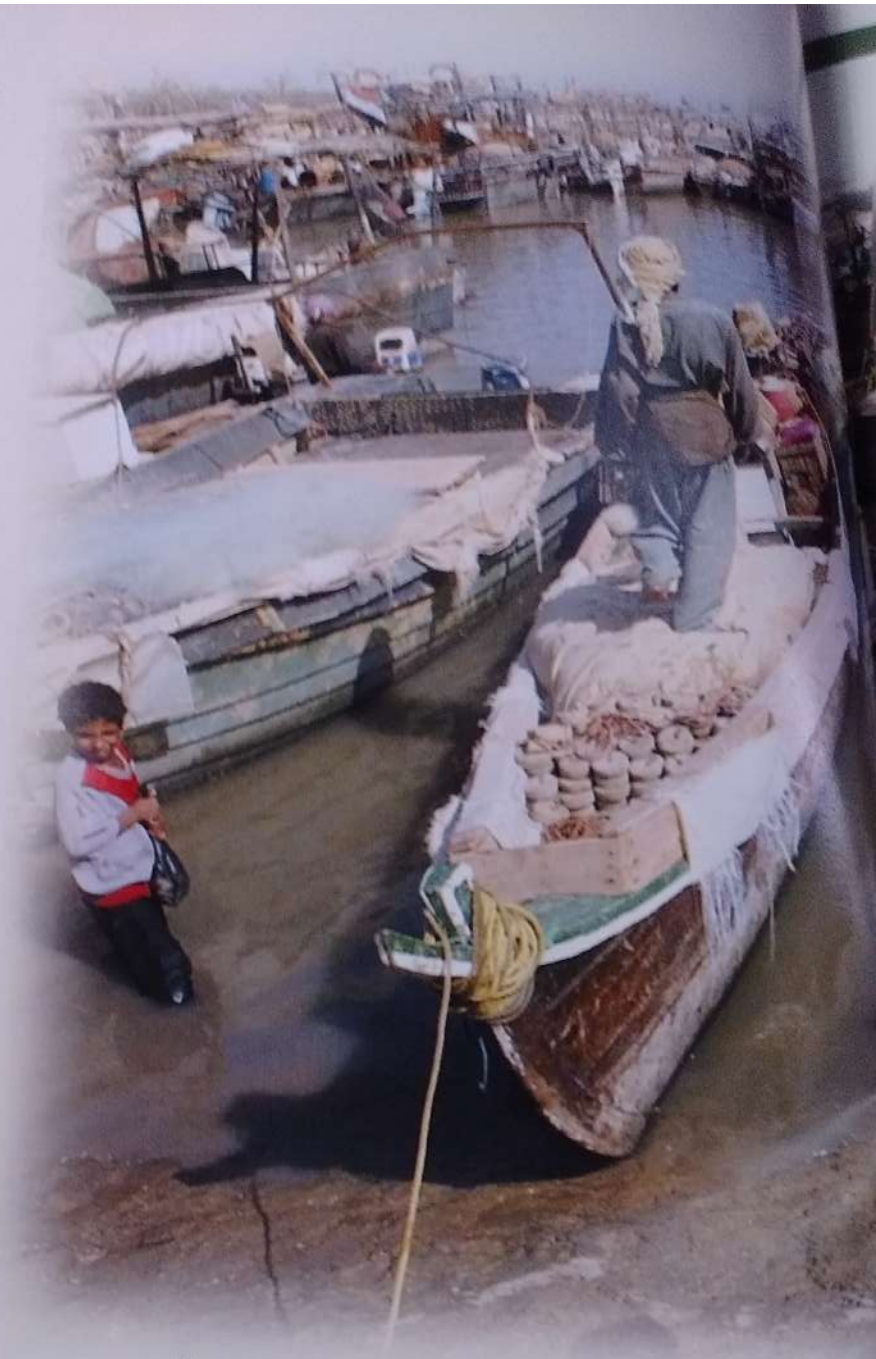

ي الحضارة العربية الاسلامية

بداية الأمر من القصب، نظراً لقربه من
نا»، ونظراً لانشغالهم بالغزو والفتح،
ا غزوا نزعوا ذلك القصب ثم حزموه
حتى يعودوا من الغزو فيعيدوا بناءه
١٥).

ور العمراني الذي شهدته البصرة
الإسلامي كان في فترة ولاية أبي
صري (١٦) (١٧ ـ ٢٩هـ/٦٣٨ ـ ٦٥٠
ا عين الخليفة عمر بن الخطّاب أبا
صري والياً على البصرة قال له

(١٧): «يا أبا موسى، إنّي مستعملك؛ إنّي أبعثك إلى أرض قد باض بها الشيطان وفرّخ، فالزم ما تعرف، ولا تستبدل فيستبدل الله بك». فقال: يا أمير المؤمنين، أعنّي بعدّة من أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار، فإنّي وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال كالملح لا يصلح الطعام إلاّ به (...) فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً؛ منهم أنس بن مالك (١٨) وعمران بن حصين (١٩) وهشام بن عامر (٢٠) وعند وصوله إلى البصرة أخذ بتغيير الهيكليّة العامة لمنشآتها الدينيّة والإداريّة، ولمنازل سكانها، إذ إنّ الناس اختطوا وبنوا المنازل. وبنى ابو موسى الاشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين، وسقفها بالعشب، وزاد في المسجد(٢١).

ويقيس احد رجال البصرة في عهد واليها خالد بن عبد الله القسري (٢٢) طول المدينة وعرضها، ويعلن نتائجه قائلاً: (٢٣)

فوجدت طولها فرسخين وعرضها فرسخين إلاّ دانقاً ». اي انّنا امام مساحة تقدّر بحوالي ستة وثلاثين ميلاً عربياً اي بمساحة تقريبية تعادل ١٣٩كم٢ (٢٤). وحسب إحصائيات احد رجال البصرة في عهد زياد بن ابيه (٢٥)، وجد انّ عدد جماعة المقاتلين العرب ثمانون الف مقاتل، وانّ عدد افراد عائلاتهم مائة وعشرون الف فرد (٢٦). وطبيعي جداً ان يزيد عدد سكان البصرة على هذا الرقم بكثير فيما لو احصى رجل اخر عدد السكان. هذا إذا عرفنا انّ جاليات اخرى وافراداً اخرين كانوا يقيمون في هذه المدينة، فهناك البدو الذين لا ينضوون تحت جماعة المقاتلين الذين ذكروا سابقاً، وهناك الجاليات الاجنبية غير العربيّة التي تعيش في هذه المدينة، إذ تشير الدراسات إلى أن سواد البصرة كلهم عجم (٢٧). يضاف إلى ذلك المهاجرون إلى البصرة من الأرياف القريبة، وغالبيتهم من الأنباط، وهم الساميّون الذين يشكّلون حلقة وسيطة بين الآراميين والعرب (٢٨).

ويبدو انّ البصرة كانت موقعاً عسكرياً كبيراً، تأسّس في اثناء الفتح الإسلامي(٢٩)، ليسهم في نمو الفتح وامتداده، وليكون قادراً على إيواء المجاهدين وعوائلهم، ومركزاً ادارياً للمناطق الجديدة التي تمّ فتحها، وليشكّل حلقة وصل بين المدينة المنوّرة العاصمة والمناطق المفتوحة، إذ يمكن بوساطته إرسال النجدات والأوامر العسكريّة، بالإضافة إلى كونه خطّاً مفتوحاً، يؤمّن رجوع المسلمين في حال تعرّضهم للخطر، ومركزاً تموينياً للجيوش التي تحارب في الجبهات الحربيّة (٣٠).

والبصرة - عبر التاريخ - مركز تجاريّ مهمّ، نظراً لكونها أكثر الموانئ الخليجية استفادة من التجارة، لأنّ الملاحة فيها سهلة ومأمونة لاقترابها من المناطق العميقة المياه نسبياً. (٣١) ومن ميزاتها أنّها تقابل فارس (٣٢)، ولذا فهي صلة وصل بين الحضارتين العربيّة والفارسيّة، فبوساطة موانئها تدخل المؤثرات الفارسيّة إلى الحضارة العربيّة، من جوارٍ وتجارة وتبادل معرفي، وعادات وتقاليد. وبشكل عام كان لمنطقة الخليج العربي، بموانئها المهمّة: سيراف والبصرة ومسقط، دور مهمّ في تنشيط حركة المثاقفة الحضاريّة بين العرب وغيرهم من الشعوب، لأنّ هذه المنطقة منطقة حدودية، وهي منطقة تأثير وتأثّر، ليس فقط بين العرب والفرس وإنّما أيضاً مع دول الجوار الأخرى الهنديّة والإفريقيّة. فقد شكّلت هذه المنطقة حلقة الوصل بين العرب

والأقوام الأخرى، وبفضل التجار (...) انتشر الإسلام في السواحل الإفريقية والهندية وفي جزر أندونيسيا، كما تدفق الأفارقة والهنود وغيرهم على الجزيرة العربية للحج وعلى الخليج للبحث عن اللؤلؤ والاتجار. كما تم استيطان متبادل، واغتنت سائر القوميات بتفاعلها مع بعضها (٣٣).

وتبدو البصرة في حكايات التاريخ والأساطير والخرافات العربية، وتحديدا في نصوص الف ليلة وليلة الحكائية فضاء مهما في الوحدات السرديّة. ومن يقرأ الأدبيات التاريخية الكلاسيكية العربية والنصوص الحكائية التراثية سيكتشف مدى أهمية هذه المدينة بأبعادها المعرفية والثقافية والاجتماعية والسياسية ، ودورها المعرفي والحضاري في نشر ثقافة العرب والمسلمين وحضارتهم التي سبقت قديما حضارات العالم الأخرى بأشواط بعيدة. ■

هوامش

(١) الخوري، د. فؤاد إسحق: القبيلة والدولة في البحرين – تطوّر نظام السلطة وممارستها، معهد الإنماء العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٣ م، ص ٢٨

(٢) العلوي، هادي: "البصرة في ذاكرة الحضارة"، مجلة البديل، اتحاد الكتّاب والصحافيين العراقيين، لا. ب، العدد العاشر، تشرين الأول / اكتوبر ١٩٨٧م، ص٩

(٣) ياقوت، شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي (٦٢٦هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي، بيروت، طبعة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ١ / ٤٣٠

(٤) م.ن، ١ / ٤٣٠

(٥) الساسانيون: سلالة فارسية ساسانيّة تنتسب إلى ساسان أحد كهنة الإلهة اناهيتا. ملكت بين ٢٢٦ م – ٦٥١ م. اسسها أردشير الأول. أشهر ملوكها: شابور الأول وشابور الثاني وكسرى أنوشروان. = العلايلي، عبد الله؛ و اخرون: المنجد في الأعلام، دار المشرق، بيروت، الطبعة العاشرة ١٩٨٠م، ص ٣٤٤

(٦) العلوي، هادي: "البصرة في ذاكرة الحضارة"، ص ٩

(٧) عُتْبَة بن غَزْوان: (ابن جابر بن س تراجم)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، شباط (فبراير)، ١٩٩٧م، ٤ / ٢٠١ .

(٨) العلوي، هادي: "البصرة في ذاكرة الحضارة"، ص ١٠

(٩) معجم البلدان، ١ / ٤٣٠. والقَضَة: ما صغر أو تفتت من الحصى.

(١٠) م.ن، ١/ ٤٣٢. والبصرة: الأرض الغليظة، والطين فيه حصى وحجارة رخوة فيها بياض.

(١١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: عبد الأمير مهنّا، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/١٩٩١م،٢ / ٣٣٧.

(١٢) سعد بن أبي وقّاص: (ابن أهيب بن عبد مناف القرشي الزهري، ٢٣ ق هـ – ٥٥هـ / ٦٠٠ – ٦٧٥ م): فاتح العراق ومدائن كسرى، وأحد الستة الذين عينهم عمر بن الخطّاب للخلافة، وأحد العشرة المبشّرين بالجنة. شهد بدراً وافتتح القادسية. ونزل أرض الكوفة وجعلها خططا لقبائل العرب. – الزركلي، خير الدين: الأعلام، ٣ / ٨٧ .

(١٣) معجم البلدان، ١ / ٤٣٢.

(١٤) عثمان، د. محمد عبد الستّار: المدينة الإسلاميّة، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت العدد ١٢٨، الطبعة الأولى، ذو الحجّة ١٤٠٨م/آب (أغسطس)، ١٩٨٨م، ص ٦٥

(١٥) معجم البلدان، ١ / ٤٣٠

(١٦) أبو موسى الأشعري: (عبدالله بن قيس بن سليم بن حرب، ٢١ ق.هـ – ٤٤ هـ / ٦٠٢ – ٦٥٥ م): صحابي، من الولاة الفاتحين، وأحد الحكمين الذين رضي بهما عليّ ومعاوية بعد حرب صفين. ولد في زبيد (باليمن) وقدم مكّة عند ظهور الاسلام فأسلم، وهاجر إلى أرض الحبشة. ثم استعمله رسول الله (ص)على زبيد وعدن. – الزركلي، خير الدين: الاعلام ٤ / ١١٤

(١٧) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٢٣م): تاريخ الأمم والملوك "تاريخ الطبري"، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة بيروت، الطبعة الثانيّة، جمادى الثانيّة ١٣٨٧هـ/سبتمبر ١٩٦٧م، ٤ / ٧٠ –٧١

(١٨) أنس بن مالك: (ابن النضر ابن ضمضم البخاري الخزرجي الانصاري ١٠ق هـ – ٩٣ هـ / ٦١٢ – ٧١٢ م): صاحب رسول الله (ص) وخادمه. روى عن رجال الحديث ٢٢٨٦ حديثاً. مولده بالمدينة، مات بالبصرة، وهو آخر من مات بالبصرة من الصحابة. – الزركلي،خير الدين: الاعلام،٢ / ٢٤ – ٢٠

(١٩) عمران بن حصين: (ابن عبيد، ٠٠٠–٥٢ هـ / – ٦٧٢ م) من علماء الصحابة. أسلم عام خيبر (سنة 7هـ) وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة. وبعث عمر بن الخطاب إلى سكان البصرة ليفقههم. وولاّه زياد ابن أبيه قضاءها. وتوفي بها – م.ن،٥ / ٧٠

(٢٠) هشام بن عامر: لم أجد له ترجمة في الأعلام، ولا في المعجم في الأعلام

(٢١) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود: من كتاب فتوح البلدان، اعتنى النصوص وعلّق عليها د. شوقي أبو خليل، = منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط ١٩٩٧ م، ص ٤٣٣

(٢٢) خالد بن عبد الله القسري: (ابن يزيد بن أسد، ٦٦ ـ ١٢٦ هـ / ٦٨٦ م): أحد خطباء العرب وأجوادهم. يماني الأصل، من أهل دمشق. ولّي مكّة ٨٩ هـ للوليد بن عبد الملك، ثم ولاّه هشام بن عبد الملك العراقين (الكوفة والبصرة) سنة ١٠٥هـ. – الزركلي، خير الدين: الأعلام،٢ / ٢٩٧.

(٢٣) معجم البلدان، ١ / ٤٣٤

(٢٤) العلوي، هادي: "البصرة في ذاكرة الحضارة"، ص١٢

(٢٥) زياد بن أبيه: (١ –٥٣هـ / ٦٢٢ –٦٧٣ م): أمير، من الدهاة الفاتحين، الولاة. من أهل الطائف. اختلفوا في اسم أبيه، فقيل عبيد الثقفي، وأسلم في عهد سفيان. ولدته أمه سميّة (جارية الحارث بن كلدة الثقفي)، وأسلم في عهد ولاّه معاوية بن أبي سفيان البصرة والكوفة وسائر العراق. – الزركلي، الأعلام ٣ / ٥٣

(٢٦) معجم البلدان، ١ / ٤٣٤

(٢٧) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء الرابع، ترجمة إبراهيم خ... وزارة الثقافة، دمشق، ط... والقسم الثالث، ص...

(٢٨) العلوي، هادي: "البصرة في ذاكرة الحضارة"، ص...

(٢٩) ميكيل، أندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء الرابع، ترجمة إبراهيم خ... وزارة الثقافة، دمشق، ط... والقسم الثالث، ص... ٤٦٨.

(٣٠) المو... العوامل الت... المدن العر... الثقافة و... بغداد، الـ... ٦٣ – ٦٤

(٣١) ... القبيلة و...

(٣٢) ميكيل، اندريه: جغرافية دار الإسلام، الجزء ال... ص ٢٣٠

(٣٣) النعيمي، عبد الرحمن محمد: الصراع على... الأدبية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٤ م، ص ١٤

الثقافية

المملكة في
مواجهة الارهاب

المستوطنون
في الخليل

مناقشة الوزراء
في مجلس الشور

ضرورة الا
في الابتع

صور
في

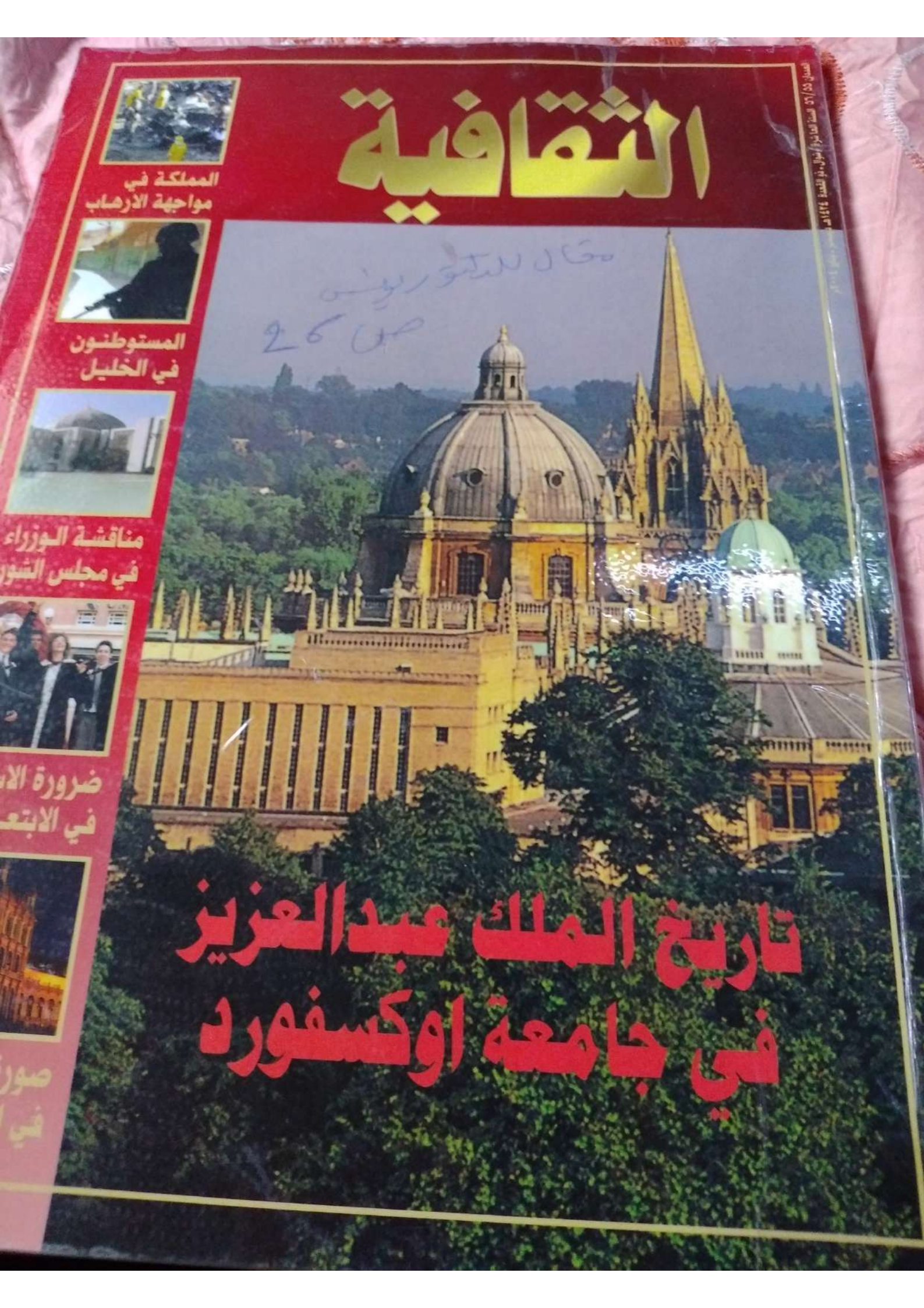

تاريخ الملك عبدالعزيز في جامعة اوكسفورد

في لقاء مع مستشرق صيني حول الفكر والثقافة في الصين

كانت الحضارتان الصينية والعربية الاسلا

د. محمد عبدالرحمن يونس
سوريا *

الأستاذ د. شريف شي سي تونغ، باحث أكاديمي، وأستاذ في جامعة الدراسات الأجنبية ببكين، وهو رجل مليء بالمعرفة وبالتواضع العلمي في آن، يستقبلك بأدب كبير، وبنبل عميق، عاشق للغة العربية وآدابها وفنونها وتاريخها وثقافتها، وهو باحث ومترجم نشيط، ومحب للعرب وصديق لهم، ومطلع على ثقافتهم وحضارتهم وفكرهم، ويرى أنهم أمة عريقة في الحضارة والمعرفة.

وكان لي معه هذا اللقاء في منزلي ومنزله ببكين، وقد استغرق منا هذا اللقاء جلسات ممتعة، تبادلنا فيها الآراء حول كثير من القضايا الثقافية والفكرية والسياسية في الصين اليوم، عصر الانفتاح، والتحرر من كثير من القيود الإيديولوجية التي كانت تحكمها أيام ماو تسي تونغ. وقد جرى الحوار بيننا كالتالي:

● في البداية دعنا نتحدث عن بدايات تعلمك للغة العربية، ولماذا اخترت اللغة العربية تحديداً من دون غيرها من اللغات الشرقية الأخرى؟

بدأت في تعلم اللغة العربية في سنة ١٩٥٩م، وفي تلك السنة التحقت بالمعهد العالي للدراسات الدبلوماسية الخارجية، وبقيت في هذا المعهد من عام ١٩٥٩ الى عام ١٩٦٢م، ثم انتقلت الى جامعة الدراسات ببكين، وتابعت دراساتي العليا فيها، ثم أصبحت استاذاً محاضراً في هذه الجامعة، ثم استاذاً في ما بعد. اخترت اللغة العربية مصادفة وحسب الحاجة الى الاختصاصات في اللغات الشرقية. كان نصيبي أن أدرس اللغة العربية، وكان طموحي في البداية أن أصبح دبلوماسياً، لأن هذه المهنة تعجبني لأنها تتيح لي التواصل مع الآخرين في الدول الأخرى، وأن أفهم ثقافتهم وحضارتهم، ولكن الحكومة دفعتني لأن أعمل أستاذاً جامعياً، فالحكومة قالت: يجب أن تدرس اللغة العربية. وقبل تخرجي في الجامعة بسنتين عرفت أن الجامعة تريدني أن أعمل بها، ففكرت في الموضوع، واقتنعت به، وقلت: إن عملي كأستاذ جامعي سيدفعني إلى أن أنهل من الثقافة العربية والصينية كما كبيراً، لأني أعتقد أن الفرد لا يكون مثقفاً جاداً إلا إذا كان أستاذاً جامعياً وباحثاً أكاديمياً في الجامعة. وبعد أن عرفت أني سأكون أستاذاً جامعياً قررت أن أسهم في تغيير النظم التعليمية القديمة، وأسلوب التدريس المتعامل به في الجامعة، لكي أطوره وأحسنه لأني أرى ذلك واجباً يفرضه عليّ ضميري الإنساني والمهني، وأن أسهم في إعداد نخبة جديدة من الأكفاء، الذين يفكرون بطريقة جديدة، وبطريقة علمية مستنيرة، تدفعهم في ذلك الأخلاق العالية لخدمة وطنهم وأبنائه. وبالإضافة إلى عملي كأستاذ جامعي فقد عملت مترجماً من العربية إلى الصينية وبالعكس في وزارة الخارجية ووزارة الري والطاقة الكهربائية، ووكالة أنباء الصين الجديدة، واللجنة الوطنية للتربية البدنية والرياضة، وهيئة الشؤون الخارجية للشعب الصيني.

● هل حققت رغباتك وأهدافك في تغيير النظم التعليمية القديمة بعد تخرجك في الجامعة؟

– لقد أسهمت في وضع منهاج موحد لتدريس اللغة العربية في الجامعات والمعاهد العليا في الصين كلها، لكن الجامعات الصينية احتجت على هذا المنهاج لأنه صعب، إلا أن وزارة التعليم العالي في الصين رأت أهميته ونجاحه، فجعلته مقرراً على كل جامعات الصين ومعاهدها التي تدرّس اللغة العربية، تم طبعه ونشره في دار جامعة الدراسات الأجنبية ببكين (الفرع الثاني)، ثم طبع مرة ثانية في دار جامعة بكين. وهذا المنهاج معمول به حتى الآن منذ ١٢ سنة.

● هل لك أن تذكر أهداف هذا المنهاج الذي وضعته..؟

– تتلخص أهداف هذا المنهاج في ما يلي:

١– نشر المعلومات الأساسية عن اللغة العربية للطلبة.

٢– تدريب الطلبة تدريباً شاملاً للمهارات اللغوية ليصبح لديهم مبدئية عن ثقافة البلاد العربية وأحوالها، وإعداد الطلبة لأن يصبح لديهم المقدرة على التعامل باللغة العربية، والتواصل مع الآخرين في البلدان العربية، ثم تعليم الطلبة الطرق الدراسة العلمية وتنمية عادات السليمة لديهم، ويعتبر هذا بمثابة أساس للصفوف المتقدمة، ويتبع هذا المنهج أنواع من وأهداف اللغة ومحتوى

تمثلان أعلى المستويات للحضارة البشرية

● ما هي الكتب التي قمت بتأليفها، وما هي أهدافها؟ وهل وضعت منهاجاً للطلبة الجامعيين في هذا الشأن؟

- إن تخصصي في تدريس الصوتيات والنطق باللغة العربية، وقد وضعت منهاجاً لتدريس النطق باللغة العربية. ويتكون هذا المنهاج من:

١- كتاب تعليمي واسمه «اللغة العربية» ومعه أربعة أشرطة مسجلة.

٢- كتاب آخر واسمه «أساسيات اللغة العربية» ومعه ستة أشرطة مسجلة.

٣- كتاب آخر «تعلم اللغة العربية بأقصر وقت» ومعه ثمانية أشرطة مسجلة وأشرطة فيديو مصورة بشكل تمثيلي نموذجي ناطق. وهذه الأشرطة مكونة من ٩٠ ساعة دراسية، وجميع الأشرطة السابقة مسجلة بصوتي وقد ساعدني في إعداد أشرطة الفيديو الأستاذ أمين محمد ماجون. وقد استفاد منه إخواننا المسلمون كثيراً في جميع أنحاء الصين، واستفاد منه أيضاً أئمة المساجد في الصين في تحسين نطقهم والتعبير جيداً عما يدور في أذهانهم. أما أشرطة التسجيل فإنها وزعت على جميع الجامعات التي تدرّس اللغة العربية في الصين، وكذلك وزعت في جميع معاهد العلوم الإسلامية في الصين.

● ما هي أهم الصعوبات التي وجدتها وأنت تدرّس اللغة العربية لغير الناطقين بها.

- هناك صعوبات عديدة أهمها:

مشكلة النطق: إذا تحدثنا عن نطق بعض الحروف العربية الأصوات المتقاربة (س ش ص ض)، فإن الأصوات التي تخرج من المخارج الصوتية الآتية: الحلق والأسنان، واللثة مع طرف اللسان ومقدمته، والأسنان وطرف اللسان، واللهاة مع مؤخرة اللسان، وعددها اثنا عشر صوتاً (حرفاً) وهي: (ث ذ ط ظ ق ر ح ع أ هـ خ غ) لا توجد في اللغة الصينية، وهذا يشكل صعوبة كبيرة بالنسبة للمبتدئين.

مشكلة الكتابة: إن كتابة حروف اللغة العربية صعبة جداً لأن لكل حرف أربعة أشكال، بمفرده، وفي مقدمة الكلمة، وفي وسطها، وفي آخرها. وأيضاً يجد الطلبة صعوبة بالغة في التنقيط والتشكيل، وكلها تأتي متزامنة أثناء تعلم اللغة العربية، وهذا يشكل صعوبة كبيرة لديهم فوق ما يعانون أصلاً من الخلل الفهم ومن هنا نجد نقص الكلمات العربية ويلتزمون تعلمها. ولكنهم يتفاوتون التحصيل في مهاراتها تعلمها. وإذا تحدثنا عن خواص الأصوات العربية، وتغيرها وعدم الاتفاق في النطق والشكل، وتظهر على سبيل المثال ظواهر التغيير الصوتي في حروف الإطباق (ص ض ط ظ) و (من ن ما) معاً، نجد أن هذه الأصوات صعبة النطق. وتأتي أيضاً مشكلة أخرى بالنسبة للطلبة، وهي مشكلة تفخيم النطق في حروف الإطباق. فمثلاً نجد أن لفظ الكلمات (فصل، فاطمة، مصر، مطعم، مظهر) وغيرها هي صعبة النطق بالنسبة للطلبة، لأن الطلبة لا يستوعبون المخارج الصوتية حين تفخيم النطق. وهناك ميزات أخرى خاصة في اللغة العربية لا توجد في أية لغة أخرى من لغات العالم إلا وهي: قراءة الحركة الإعرابية، والمد، والشدة فنطق الشدة يشكل صعوبة كبيرة بالنسبة للطلاب الصينيين، وهناك صعوبة كبيرة في التفريق ما بين الفكرة والمعرفة. وهناك مثلاً قضية التخلص من التقاء الساكنين. فهذه قضية تبدو صعبة بالنسبة للطلبة. وأرى أن دراسة الصوتيات العربية تعتمد في البداية على الاستماع، ويعتبر التقليد والتمرينات الكثيرة مفتاحاً لإتقانها، ولا يمكن إخراج الصوتيات بشكل طبيعي إلا عن طريق التمرينات الكثيرة لمدة طويلة وبصورة متكررة، ولا يمكن الوصول إلى الفهم والاستيعاب الحقيقي لخواص النطق العربي ومهارات القراءة الجهرية إلا عن طريق التعمق بقراءة مواد دراسية كثيرة وكافية. وقد حاولت في جميع كتبي أن أذلل هذه الصعوبات الكثيرة، وذلك بأن وضعت قواعد خاصة لتسهل على الدارسين الصينيين نطق هذه الحروف بشكل سليم.

أما الصعوبة الثالثة فهي: الصرف والنحو فهناك اسم الفاعل واسم المفعول، وصيغ المبالغة من اسم الفاعل، وهناك المذكر والمؤنث، وهناك تصريف الأفعال، وهناك المفرد والمثنى، والجمع بأنواعه المختلفة في اللغة العربية. في حين أننا في اللغة الصينية لا نستخدم هذه الصيغ الصرفية أبداً.

إن الفعل في الصينية واحد في جميع الحالات، والجمع في اللغة الصينية واحد في كل صيغه، في حين لا نجد هذه الحال في اللغة العربية. وأيضاً على مستوى الترتيب، فعندكم في اللغة العربية تأتي الصفة بعد الموصوف، وهذا عكس اللغة الصينية، إذ تأتي الصفة أولاً ثم الموصوف ثانياً. والاختلافات الأخرى في أدوات الاستفهام، فأنتم تضعونها في المقدمة،

أما نحن فنضعها في المؤخرة. وهذا يسبب مشاكل للطلبة، إذ تجدهم دائماً يخطئون في تراكيبها الصحيح وهناك صيغة الفعل المبني للمجهول، وهذه الصيغة صعبة بالنسبة لدارسي اللغة الصينية، لذا لا نستعرض هذه الصيغة أبداً في لغتنا. وعلى سبيل المثال هناك ظواهر نحوية أخرى تختلف عن اللغة الصينية اختلافاً كبيراً، كالإعراب الاسمي، والنكرة والمعرفة، والاسم المعرب والمبني، والممنوع من الصرف، والمصادر، والأفعال الثابتة والناقصة. فهذه كلها تختلف عن اللغة الصينية اختلافاً واضحاً. ولا توجد المصادر والأسماء المعربة والمبنية، والأفعال الثابتة والناقصة، ولا النكرة ولا المعرفة، أي لا تمييز بين المبني والمعرب، ولا بين النكرة والمعرفة.

● لقد قلت في إحدى دراساتك المنشورة: لقد كانت الحضارة الصينية والحضارة العربية الإسلامية تمثلان أعلى مستوى للحضارات العالمية في العصور الوسطى، وقدمتا أكبر الإسهامات، وأعظم المنجزات للحضارات البشرية كلها. ما هي في رأيك أهم هذه الإسهامات والمنجزات؟ أرجو أن تتحدث عن إسهامات العرب والصينيين في الإنجاز الحضاري والمعرفي في تاريخ الحضارات البشرية.

بالنسبة للإسهامات الصينية المقدمة للحضارة البشرية هي: صناعة الورق، والطباعة، والبارود، والبوصلة، والاختراعات نبات على حد تعبير كارل ماركس «بقدوم المجتمع الرأسمالي، فالبارود طبقة الفرسان، والبوصلة فتحت العالمية، وأقامت المستعمرات، وفي أصبح أداة تعليم ووسيلة النهضة الفكرية دافعة كبرى، ومقدمة ضخمة لتطور الإبداعية».

ومن المعروف أن الحضارة الصينية مكانة هامة في تاريخ الحضارات واحدة من أقدم حضارات العالم الحضارات الإنسانية في العالم الحضارة الوحيدة من بين حضارات التي قامت واستمرت وتطورت

● ألا ترى معي أستاذ أن الحضارة العربية الإسلامية أيضاً من أهم منجزات الحضارة الإنسانية في العالم كونها قامت واستمرت وتطورت وهذا مثلها مثل الحضارة الصينية؟

- أنا معكم في أن الحضارة العربية والإسلامية هي من أهم

● عقلية العرب هي التي علمت علماء الغرب كيف يدرسون

أيضاً، وقد أسهمت مثلها مثل الحضارة الصينية في تطور الحضارات الإنسانية، وقدمت لها منجزات عديدة وعظيمة وخالدة، وسأشير إلى ذلك بعد قليل.

● دعنا نكمل أستاذ شريف.

– إن الحضارة الصينية لم تنحصر في الأراضي الصينية فحسب بل انتشرت في دول شرق القارة الآسيوية كاليابان وكوريا وفيتنام وغيرها من الدول لتسهم في تشكيل حضارة شرق آسيا. وظلت الصين تمثل مركز دائرة هذه الحضارة منذ القرن الرابع قبل الميلاد إلى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، وقد ورد في كتاب: «الجدول الزمني للاختراعات العلمية الكبرى في العالم» أن مجموع الاختراعات والإنجازات العلمية الكبرى الهامة في الفترة من القرن السادس قبل الميلاد إلى القرن الحادي عشر الميلادي (٢٣١) اختراعاً، وكان نصيب الصين منها (١٣٥) اختراعاً أي بنسبة قدرها (58.4٪). ومنذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي حتى السادس عشر الميلادي نجد أن مجموع الاختراعات والإنجازات العلمية الكبرى الهامة في العالم (٦٧) اختراعاً، ونجد أن نصيب الصين منها (٣٨) اختراعاً، أي بنسبة قدرها (٥٤٪)، وفضلاً عن ذلك فإن الاختراعات الأربعة الكبرى في الصين (صناعة الورق، والطباعة، والبارود، والبوصلة) قد لعبت دوراً رئيسياً طليعياً ومهدت لبداية عهد حضاري جديد. هذا وقد أثرت صناعة الورق في ما بعد في مراحل تطور الحضارة الغربية.

أحب أن أضيف بهذه المناسبة أن طريقة صناعة الورق إلى العرب لم تتم إلا بعد أن دارت معركة طلس في عام ٧٥١م بين الصين والعرب، ففي هذه المعركة فشلت الصين في أسر العرب كثيراً من الجنود العرب، ومنهم بعض عمال صناعة الورق، فعرب بين العتق والرق، وجعلوا ثمن كل حرفة من الحرف، فأتضح أن من أولئك الأسرى الصينيين صناعة الورق، فأعتقهم المسلمون وجعلوا لهم مصانع الورق في مدينة سمرقند عام ٧٥١م، فقام هؤلاء بنشر صناعة الورق في العالم الإسلامي، وشيدوا أول مصنع للورق في بغداد عام ٧٩٣م، وأول مصنع في دمشق عام ٧٩٤م، وأول مصنع في مصر عام ٩٠٠م، وأول مصنع في المغرب عام ١١٠٠م، وأول مصنع في فاس. وأما في فرنسا فقد كان أول مصنع في إيطاليا عام ١٢٧١م، وفي أمريكا إلا في القرن

صناعة الورق في ما بعد إلى الغرب كله. وأرى أن لهم فضلاً عظيماً في بناء حضارة أوروبا الغربية الحديثة، فقد قال أرنولد توينبي المؤرخ الانكليزي بما معناه: إن الدور الذي لعبه العرب في هذا الصدد كان ايجابياً، فهم لم ينقلوا الفكر الإغريقي إلى أوروبا إلا بعد أن فحصوه ودققوا فيه، ثم شرحوه شرحاً جلا الغامض فيه، وعلقوا عليه تعليقاً أزال عثراته، وأكمل نواحي النقص والتقصير فيه.

وفي الحقيقة أن عقلية العرب هي التي علمت ذهنية علماء الغرب كيف يدرسون المعضلات، ويحققون الشبهات، ويحلون المشكلات، وينقبون عن الأسباب الرئيسة للأمور، ويستنبطون النتائج المترتبة عليها.

إن العلم العربي لم يكن مجرد براعة عقلية فحسب، بل كان علماً تجريبياً أيضاً، ولقد كان العرب في القرون الوسطى يمثلون التفكير العلمي الذي تمثله أوروبا الحديثة الآن، إذ آمنوا بقيمة التجارب العلمية واتخذوها وسيلة لكشف الحقائق الجديدة. وقد أثبت التحقيق التاريخي أن العرب هم الذين وضعوا قاعدة «جرب واحكم»، قطبهم تجريبي، وفلكهم تحقيقي، وهندستهم تطبيقية، وكيمياؤهم عملية. نعم إن العرب لم يصلوا في التجريب إلى الدرجة التي وصلت إليها أوروبا الحديثة، ولكن مشاهداتهم العلمية وتجاربهم الدقيقة قد هيأت أسباب تكوّن العلم الحديث، وهنا يمكن أن نقول: إن من أعظم الأحداث في تاريخ العلم هو اكتشاف العرب الطريقة العلمية، فقد عرفوا العناصر الأساسية لمنهج البحث العلمي، ويكفي أن نذكر هنا نص الدستور الذي جاء في الرسالة السابعة من رسائل إخوان الصفاء، والذي اتخذه العلماء العرب في البحث العلمي وطريقة هذا البحث ومنهاجه، إذ شمل هذا الدستور الأسئلة التالية التي يسألها العالم عند بحث كل أمر أو تجربة:

١– هل هو؟: يحكم في وجود شيء من عدمه.
٢– ما هو؟: يبحث عن حقيقة الشيء.
٣– كم هو؟: يبحث عن المقدار.
٤– كيف هو؟: يبحث عن صفة الشيء.
٥– أي شيء هو؟: يبحث عن طبيعة الشيء.
٦– أين هو؟: يبحث عن مكان الشيء.
٧– متى هو؟: يبحث عن زمان الشيء.
٨– لما هو؟: يبحث عن فائدة الشيء.
٩– من هو؟: يعرف بالشيء.

وبهذا المنهاج العلمي وضع العرب أساساً للعلم التجريبي الحديث.

ويمكن أن نقول إنه في العصور الوسطى كانت الحضارتان الصينية والعربية الإسلامية تمثلان أعلى

والاحترام المتبادل بين الناس، فنحن الصينيين والعرب متشابهون في الأخلاق ومتفقون في المشارب.

● دعنا نتحدث عن الأدب وأسالك: هل يعجبك في الأدب العربي.. النثر أم الشعر؟ ومن من الأدباء العرب الذين قرأت لهم وتركوا في نفسك أثراً جميلاً وطيباً؟

– يعجبني الأدب العربي كثيراً، إذ انه جزء هام من الأدب العالمي، وله دور كبير وفضل عظيم على كثير من الآداب العالمية الأخرى، وأعتقد أن في هذا الأدب نوابغ كثيرة، وأعلاماً مهمة جداً في القديم والحديث. وإني أعتبر هذه الأعلام نجوماً وكواكب تتلألأ في سماء الأدب والفكر الإنساني، وقد أسهم الأدب العربي ولا يزال يسهم، وسيسهم في المستقبل في إزدهار الأدب العالمي. واسمحوا لي أن أذكر بعض أسماء الأدباء العرب المشهورين الذين قرأت لهم، فمن الشعراء القدماء يعجبني أمرؤ القيس (٥٠٠–٥٤٠م)، وأذكر بعضاً مما قاله في معلقته، والذي أعجبت به، وكان له وقع خاص في نفسي:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط الوى بين الدخول فحومل
وإن شفائي عبرة مهراقة
فهل عند رسم دارس من معول
أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل
وإن كنت قد أزمعت صرمي فأجملي
أغرك مني أن حبك قاتلي
وأنك مهما تأمري القلب يفعل

وأرى أن شعر هذا الشاعر العظيم قائم على استنفار المشاعر الإنسانية العميقة، وعلى التشبيه الذي يمتاز بالتلميح والابتكار، فشعر يهز مشاعر كل إنسان في أي بلد عربي، في كل عصر، فقد كان قوله «قفا نبك» أعظم مطلع للحب في وجه الفناء، وكان لهذه الصيحة عميق في كل قلب خافق يتعلل بالآمال والأماني. ويعجبني أيضاً عبدالله بن المعتز (٧٢٤–٧٥٩م)، فهذا الرجل على أخلاقه جداً، ونبل إنساني قل نظيره في الثقافة فهو واسع المعرفة والإطلاع، وعباراته وفصيحة ومعبرة، ولهذا الأديب الفذ في الأدب والفلسفة وعلم الاجتماع مصلح اجتماعي، إذ أنه يدعو إلى السياسة والسلطة، والتخفيف من بؤس واستبدادهم، وهو يدعو بشكل معالجة أمراض المجتمع ويدعو إلى اختيار الأعوان والمنصفين على أساس

...ويحلون المشكلات العلمية ويستنبطون النتائج المترتبة عليها

...كتابه الكليلة ... أثاره التي ... ينجد فيه تفصيلاً واضحاً لواجبات ... والمحكوم في آن واحد. ونظراً لقيمته ... الحاكم والأدبية والأخلاقية فقد تمت ترجمته ... الحكمية ... إلى اللغة الصينية، وقد قام بترجمته أستاذي ... الجامعة الدكتور المرحوم يونس ... الفاضل في ... هو)، وقد تم نشره منذ ... الصيني ... أربعين سنة، في دار الأدب الشعبي، ... أكثر ... الأكبر لدى القراء الصينيين ... الجاحظ (٧٧٥-٨٦٨م)، وكان ... عصره وقد كان مطبوعاً على الظرف ... الفكاهة، ميالاً إلى التفاؤل، والعبا حريصاً ... الوقت، كثير القراءة، ظريف الحديث، ... الطرافة، سريع الجواب، ساخراً يحب ... وكان يحب الحرية في الأدب كما يحبها ... اللغة، وهو في كتبه يميل إلى التلقيح، ... اللغة من الكلام الغريب، مع وضوح ... الدلالة والإيجاز.

وللجاحظ آثار كثيرة في الفلسفة والدين ... السياسة والاقتصاد والتاريخ والجغرافية ... الطبيعيات والرياضيات والعصبيات والأدب، ... إلى ذلك، وآثاره تؤلف موسوعة علمية ... وأشهرها: «التربيع والتدوير»، و«البيان ...يين» و«الحيوان». وقد قال أبو علي ... المسعودي عنه: «ولا يعلم أحد من ... وأهل العلم أكثر كتباً منه»، و«كتبه تجلو ... الأذهان، وتكشف واضح البرهان لأنه ... أحسن نظم، ووصفها أحسن وصف، ... من كلامه أجزل لفظ، وكان إذا تخوف ... وسامة السمع خرج من جد إلى ... حكمة بليغة إلى نادرة طريفة». (مروج ... ج٢، ٣٤٤).

... أسماء أخرى مهمة في تاريخ الأدب ... أبي نواس، والمتنبي، وأبي العلاء ... ويعجبني من الأسماء الحديثة طه ... أحمد أمين، وتوفيق الحكيم، وزكي ... وغيرهم.

... العرب إلى الثقافة الإنسانية ... ليلة وليلة، وأسهم فيه غيرهم من ... وهذا الكتاب على قدر كبير من ... الأدبي، وقد صار في ما بعد، ... العديدة، من أهم المؤلفات في ... العالمية. ولهذا الكتاب أيضاً ... النهضة الفكرية الأوروبية ... كبير في الآداب الغربية. وقد ... الصينية سبع ترجمات متعددة، ... وقد وجد هذا الكتاب إقبالاً ... الناس في الصين، سواء ... صغاراً، فهناك على سبيل ... كثيرة جداً ترجمت ترجمة ... في المدارس الصينية، ... السندباد البحري و(علي بابا ...

... الثقافة والفكر العربيين، ... الثقافة العربية خدمات

● في مقابل ذلك، وهي ترجماتك لبعض المؤلفات العربية إلى اللغة الصينية، أرجو أن تذكر لنا المؤلفات التي ترجمتها، ولماذا اخترتها من دون غيرها من الكتب الأخرى؟..

– لقد اخترت موسوعة أحمد أمين الإسلامية لترجمتها إلى اللغة الصينية وهي مكونة من ثمانية مجلدات وباقتراح من أستاذي الفاضل الدكتور عبدالرحمن نا جون، صاحب شهادة العالمية من جامعة الأزهر في الثلاثينات، أولاً، ونظراً لتأثري بكتابات أحمد أمين ثانياً. وقد ترجمت مع غيري ستة أجزاء منها، فقد ترجم أستاذي الدكتور عبدالرحمن نا جون فجر الإسلام بمساعدة أحمد أمين نفسه أما أنا فقد ترجمت ضحى الإسلام الجزء الأول مع الأستاذ الدكتور نصر جو كاي، وترجمت الجزء الثاني مع الأستاذ الدكتور شيان بيه كو، وقد ترجمت بمفردي الجزء الأول والثالث من (ظهر الإسلام)، وقد راجعت ونقحت (ضحى الإسلام) بأجزائه الثلاثة، وكذلك نقحت الجزء الثاني من ظهر الإسلام. وقد اخترتها من دون غيرها من الكتب الأخرى، لأنني أرى أن أحمد أمين كان عالماً أديباً مصنفاً، وباختصار أنه مفكر عربي إسلامي أصيل، وكان ثائراً على الخرافات والأباطيل الموروثة، وكان عالماً قادراً على الإسهام في تغيير الجمود والتخلف. وقد دعا في جميع كتاباته إلى الإصلاح والتجديد بقدر استطاعته، وكان يحمل نفساً ثائرة، وإرادة متحررة وفؤاداً ذكياً متوهجاً وعقلاً متحفزاً للانطلاق والوثوب. وقد قال طه حسين عنه: «لقد أهدى أحمد أمين إلى العالم الحديث بتأليف فجر الإسلام وضحاه وظهره كنزاً من أقوم الكنوز وأعظمها حظاً من الغنى وأقدرها على البقاء ومطاولة الزمان». وإني الآن أعمل على ترجمة الجزء الرابع من كتاب (ظهر الإسلام) لهذا الكاتب، وأتمنى نشرها قريباً إن شاء الله.

● ما هي أهم الصعوبات التي وجدتها وأنت تترجم من العربية إلى الصينية؟

– أول صعوبة واجهتني هي ترجمة الأبيات الشعرية مع أن هناك من يقول: «إن الشعر لا يترجم أبداً»، فهناك كلمات في الشعر العربي قديمة وغير مستخدمة حالياً، وقد وجدت أن بعض مفردات الشعر العربي القديم، غير موجودة في المعاجم العربية التي استعنت بها وأنا أترجم، فعلى سبيل المثال امتلأ كتاب ظهر الإسلام في جزئه الثالث وحده بالأبيات الشعرية الكثيرة جداً، والتي بلغت أكثر من ألف بيت لعشرات الشعراء، وقد استغرقت وقتاً طويلاً في ترجمة هذه الأبيات، وبذلت جهداً كبيراً في نقلها إلى اللغة الصينية.

أما الصعوبة الثانية: فهي تتلخص في فهم الخلفيات الاجتماعية والدينية والسياسية السائدة في العالم الإسلامي، لأنه عليك عندما تترجم أيضاً أن تفهم جميع خلفياته وأبعاده الفكرية، حتى تستطيع أن تنقله إلى لغتك بوضوح وجمال. فمثلاً عندما ترجمت أفكار الصوفية الواردة في موسوعة أحمد أمين الإسلامية، كان علي أن أعرف نشأة الصوفية ومبادئها وتعاليمها، حتى أستطيع أن أفهمها فهماً عميقاً، وبالتالي أستطيع أن أترجمها، فأنا لا أستطيع أن أترجم نصاً عربياً إلا بعد فهم كل ما يدور حوله من أفكار وتيارات وعقائد. وعندما ترجمت بعض المقولات عن الشيعة كان علي أن أعرف القضايا المتعلقة ببعض مفاهيم الشيعة ومعتقداتها، وبخاصة مفهوم الإمام المعصوم. وقد بذلك جهداً كبيراً في قراءات متعددة تتعلق بفكر الصوفية والشيعة.

وهناك أكبر صعوبة وهي: نقل أسلوب الكاتب أو الفيلسوف وجماله اللغوي، وبعده الفلسفي والرمزي، فقد وجدت صعوبة في ترجمة أفكار ابن رشد وابن خلدون وابن حزم الأندلسي وابن طفيل، حتى أن كثيراً من المترجمين في الصين –وأنا منهم– يقولون: أن الترجمة الأمينة الصحيحة مستحيلة، فمثلاً من المستحيل أن أستطيع أن أترجم أفكار أرسطو أو أفلاطون، أو أحاديث النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، أو آيات القرآن الكريم، ترجمة جميلة تعادل جمالها في لغتها الأم، فحتى أستطيع أن أترجم أرسطو ترجمة دقيقة أمينة بكل صدق، يجب أن أكون في مستواه الفكري والعقلي، وهذا مستحيل. ومع ذلك حاولت وبذلت قصارى جهدي في أن أوصل جماليات اللغة العربية إلى اللغة الصينية، ولعلي قد وفقت بعض التوفيق بعون الله.

● لقد ذكرت لي في بعض أحاديثك أنك زرت بعض البلدان العربية. هل كانت زياراتك لهذه البلدان في مهمة دبلوماسية أو لمجرد الإطلاع ومعرفة أحوال الوطن العربي؟

– لقد زرت اليمن السعيد بصفتي مترجماً مع بعثة صينية كبيرة للتنقيب عن مصادر الري، وذلك لمساعدة اليمن في بناء خزانات المياه في وادع لاع. أما زيارتي لسورية فللدراسة والبحث العلمي والاطلاع على حياة الشعب السوري الصديق، ومعرفة أحواله الثقافية والسياسية والاقتصادية والتاريخية، ولجس نبض الشعب السوري ومعرفة مدى إمكانيات تعاونه مع الصين. أما زيارتي لليبيا فهي لأجل الإشراف العلمي على الطلبة الصينيين الذي يعملون مترجمين في الشركات الصينية التي تسهم في تطور ليبيا. أما زيارتي لمصر فكانت لأجل تدريس اللغة الصينية بقسم اللغة الصينية في كلية الألسن بجامعة عين شمس بالقاهرة، ولمعرفة أحوال الشعب المصري الصديق وحضاراته القديمة الباهرة، وأحب أن أقول أن عملي في جامعة عين شمس قد حقق لي صداقات عميقة مع المثقفين المصريين وأساتذة الجامعة ما زالت راسخة في أعماقي، وما زلت أعتز بها كثيراً. ■

*محاضر في جامعة الدراسات الأجنبية

الثقافية

العدد ٧١/السنة الرابعة عشرة/رمضان - شوال ١٤٢٠هـ/سبتمبر

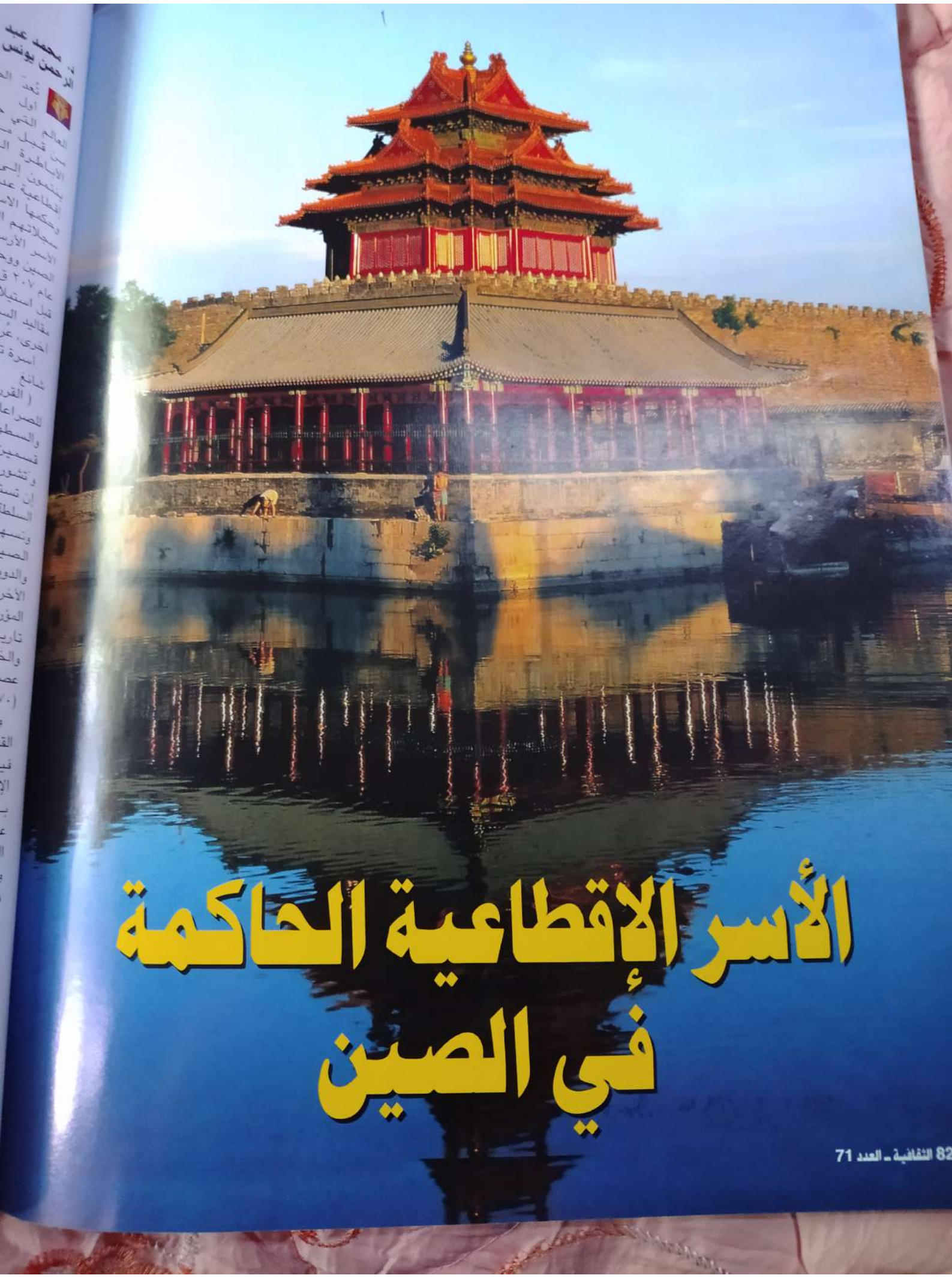

الأسر الإقطاعية الحاكمة في الصين

د. محمد عبد الرحمن يونس *

تُعدّ الصين اول دول العالم التي حكمت من قبل مئات الأباطرة الذين ينتمون إلى أسرٍ إقطاعية عديدة، عُرفت بسطوتها المطلقة، وحكمها الاستبدادي. ويصنّف المؤرخون في سجلاتهم التاريخيّة أسرة تشين اول الأسر الأرستقراطية القوية التي حكمت الصين ووحدتها، من عام ٢٢١ ق م إلى عام ٢٠٧ ق م، غير انّه يمكن القول: إنّه قبل استيلاء هذه الأسرة الإقطاعية على مقاليد السلطة، كان هناك ثلاث عائلات أخرى، عُرفت بسطوتها، وهي:

أسرة تشاو (القرن ١٦ ق م)، وأسرة شانغ (القرن ١١ ق م)، وأسرة تشو. ونتيجة للصراعات الأسرية على المال والنفوذ والسطوة فقد انقسمت أسرة تشو قسمين: "تشو الغربية" (٧٧٠ ق م)، و"تشو الشرقية" (٧٧٠ ـ ٢٢١ ق م) وما إن تستلم أسرة تشو الشرقيّة مقاليد السلطة حتى تسود الاضطرابات والفتن، وتسهم هذه الفتن بدورها في تمزيق الصين إلى عدد كبير من الممالك والدويلات الصغيرة، التي تنهمك هي الأخرى في الصراعات والقتال. ويطلق المؤرخون الصينيون على هذه الفترة من تاريخ الصين اسم (عصر الربيع والخريف وعصر الممالك المتحاربة)، او عصر ما قبل أسرة تشين، وذلك من عام (٧٧٠ ـ ٢٢١ ق م).

وفي عام ٢٢١ ق م تبرز أسرة تشين القوية على الواجهة السياسية، ويظهر فيها امبراطور عُرف بقوته وشكيمته، وهو الإمبراطور (تشين شي هوانغ) الذي لقّب نفسه بـ (شي هوانغ دي ـ الإمبراطور الأول). وقد عدّ هذا الإمبراطور القوي إلى توحيد اللغة المكتوبة في أرجاء الصين، والمقاييس والمكاييل والنقد، بعد أن كانت متعددة ومتباينة في دويلات الصين قبله، وأرسى نظام المحافظات والولايات. وبنى سور الصين العظيم الذي يعدّ أهم المعالم الأثرية في الصين كلها، ومن أهم معالم العالم الأثرية والتاريخية. شاد لنفسه قصوراً ومقابر واستراحات جماهيرية ضخمة في مدينتي (شيانيانغ و [illegible]) تشو اقرب إلى الأسطورة نظراً لأبهتها وعظمتها، واتساعها، و زخرفتها و اناقتها المعمارية. وقد اكتُشفت حديثاً في مقبرة الإمبراطور قطع أثرية رائعة الجمال، تضم تماثيل كثيرة جداً مصنوعة من الصلصال، لجنوده وخيوله. و قد عدّ علماء الحفريات والآثار في العالم أنّ هذه القطع الفنيّة من عجائب الدنيا، وسموها بـ (الأعجوبة الثامنة في العالم).

وقد عمل هذه الإمبراطور جاهداً على القضاء على جميع الممالك المتحاربة، إذ وضع حداً لانفصال الأمراء و الحكام، و استئثارهم بدويلاتهم الصغيرة، فدانت له هذه الممالك بالولاء والطاعة، و أسس أول دولة مركزيّة موحّدة وقويّة تضمّ جميع القوميات العرقيّة المتواجدة في الصين. ويطلق المؤرخون على هذا العصر:

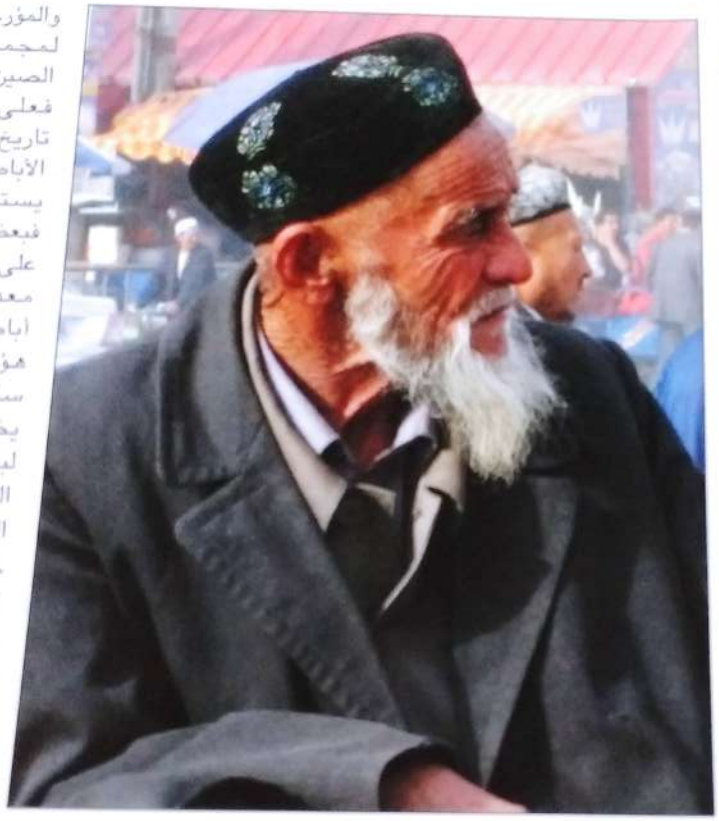

عجوز ينتمي الى احدى الاثنيات المتعددة في الصين الحديثة

(عصر أسرة تشين)

وبعد ذلك تتناوب على حكم الصين مجموعة من الأسر الإقطاعيّة التي يدوم حكمها إلى أكثر من الفي سنة. ويبين الجدول التالي تسلسل التاريخ الزمني، الذي حكمت من خلاله هذه الأسر الإقطاعية:

١ـ أسرة تشين من عام ٢٢١ق م ـ ٢٠٧ ق م
٢ـ أسرة هان الغربيّة من عام ٢٠٦ ق م ـ ٢٤م.
٣ـ أسرة هان الشرقيّة من عام ٢٥م ـ ٢٢٠م.
٤ـ أسرة الممالك الثلاث (وي ـ شو ـ وو)، من عام ٢٢٠م ـ ٢٦٥م.
٥ـ أسرة جين الغربيّة من عام ٢٦٥ ـ ٣١٦م.
٦ـ أسرة جين الشرقيّة من عام ٣١٧ ـ ٤٢٠م.
٧ـ الأسر الجنوبية والشماليّة من عام ٤٢٠ ـ ٥٨٩م.
٨ـ أسرة سوي من عام ٥٨٩ ـ ٦١٨م.
٩ـ أسرة تانغ من عام ٦١٨ ـ ٩٠٧م.
١٠ـ الأسر الخمس والدويلات العشر من عام ٩٠٧ ـ ٩٦٠م.
١١ـ أسرة سونغ الشماليّة من عام ٩٦٠ ـ ١١٢٧م
١٢ـ أسرة سونغ الجنوبيّة من عام ١١٢٧ ـ ١٢٧٩م
١٣ـ أسرة يوان من عام ١٢١٩ ـ ١٣٦٨م.
١٤ـ أسرة مينغ من عام ١٣٦٨ ـ ١٦٤٤م.
١٥ـ اسرة تشينغ من عام ١٦٤٤ ـ ١٩١١م.

وعلى الرغم من هذا التسلسل الزمني الواضح الذي يحدد تاريخ حكم هذه الأسر الإقطاعية إلاّ انه يصعب على الدارسين والمؤرخين أن يحصوا العدد الحقيقي لمجمل هؤلاء الأباطرة الذين حكموا الصين، والذين ينتمون إلى هذه الأسر فعلى سبيل المثال ظهر على مسرح تاريخ الصين السياسي عدد كبير من الأباطرة الذين لم تتح لهم الظروف لأن يستمتعوا بشهوة السلطة وأبّهتها، فبعض هؤلاء الأباطرة لم يستطع البقا على العرش إلاّ أياماً معدودة، بل ساعا معدودة في بعض الأحيان، ويُعدّ أح اباطرة أسرة مينغ الأسوأ حظاً من بـ هؤلاء الأباطرة، إذ جلس على العر ساعتين فقط، ثمّ انتقل إلى جوار يضاف إلى ذلك الاغتيال السيا لبعض هؤلاء الأباطرة بعد جلوسهم العرش مباشرة، أو الخلع السري المتمثل بالتآمر والمكيدة. وقد لعب خصيان القصور، في نهاية عه أسرة هان الغربية وهان الشرقيّ واضحا في اغتيال هؤلاء الأباطر سلّموا مقاليد امورهم لهؤلاء الخ فما كان منهم إلاّ ان شقّوا عصا على اسيادهم، ثمّ اغتالوهم في م

وإذا كان بعض هؤلاء الأ استطاعوا أن يجدوا نوعاً م والانسجام الوطني بين أفرا فانّ هذه الوحدة و هذا الانسجام بفعل سلوك السلطة و رؤيتها ـ تناقضات شديدة بين أفراد الش المستوى الطبقي والقومي، وقد التناقضات في أن تتجه طبقات الانفصال عن السلطة المركـ كانتونات خاصة بها، إلى أن يأ الأقوياء، و يحارب امراءها، و الانضواء تحت سلطة المركـ والانفصال تارجحت طبقات تحصل وحدة حتى يعقبها يحدث انفصال حتى تظهر وهكذا تعيش طبقات الش الصراعات التي تعكّر صف ويستعير الصينيون من من الشاعر الأندلسي

في مدرسة بالهواء الطلق

(٧٦٠ ـ ٨٤٨هـ/١٤٠٢ ـ ١٤٨٥م) ينتخبونه مثالاً للتعبير عن تلك الصراعات، وعن تقلبات الأحوال السياسية. وهذا المقطع هو (لكل شيء إذا ما تمّ نقصان). وهو مأخوذ من بيت أبي البقاء الرندي

لكل شيء إذا ما تمّ نقصان
فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان

ويشير التاريخ الصيني إلى أنّه كانت تظهر هذه النزعات الإنفصالية، والرغبات بالانفصال عن المركز داخل الأسرة الحاكمة الواحدة، ففي أسرتي (الممالك الثلاث - وي - شو - وو) و (الأسر الجنوبية والشمالية) . ظهرت خمس إقطاعيات انفصالية شكلّت كل واحدة منها دويلة مستقلة، وفي عهد (الأسر الخمس والدويلات العشر)، ظهرت الصراعات القوية التي أدّت إلى ظهور (١٥) خمس عشرة دويلة مستقلة، على رأس كل منها إمبراطور منفصل استأثر بمجموعة من المدن الصغيرة، وسمّاها دولة، ولم يكتف بأن نصّب نفسه إمبراطوراً عليها فحسب، بل كان يتحادى، ويدّعي أنّه إمبراطور على الصين بأسرها

وقد أسهم زعماء الفلاحين المنتفضين والثائرين على أنظمة الأسر الإقطاعية الحاكمة في زيادة عدد الأباطرة، إذ استولى هؤلاء الزعماء، بعد انفصالهم عن السلطة المركزية على مناطق نفوذ واسعة، ووطدوا سلطتهم و لسنين طويلة، وعندما عجز الأباطرة عن إعادتهم إلى بؤرة السلطة المركزية، وسيطرتها، ادّعى هؤلاء الزعماء أنّهم أباطرة على الصين كلها فعلى سبيل المثال توّج كل من (لي زي تشينغ)، و(داه شوان)، في أواخر حكم أسرة مينغ، و(تشانغ شيان تشونغ)، نفسه إمبراطوراً على المناطق التي يحكمها، وعلى الصين

لقد تعارفت المواضعات الاجتماعية و الأخلاقية الصينية الكلاسيكية على أن من يصبح إمبراطوراً يجب عليه أن يتحلّى بمزيد من الأخلاق والصفات العامة، والفضائل الأخلاقية التي قد لا توجد لدى عامة الشعب. وقد أرسى هذه الفضائل الأخلاقية فيلسوف الصين وحكيمها (كونفوشيوس) إذ وضع مجموعة من النظريات والفلسفات العامة، التي يجب أن تدار شؤون البلاد من خلالها، وتكون دليلاً وهادياً للأباطرة في شؤون حكمهم، حتى لا يتحولوا إلى طغاة ومستبدين، ورأى كونفوشيوس أنّه يجب على من يصبح إمبراطوراً أن يتحلّى بمزيد من الفضائل الأخلاقية، والقدرات العلمية والمعرفة الأساسية، ولعلّ من أهم هذه القدرات: القدرة على نظم الشعر وإبداعه

وحتى يستطيع الأباطرة أن ينالوا احترام العامة، ويفرضوا عليها السطوة والاحترام، ويوكدوا أنهم جديرون بمناصبهم الرفيعة، أخذوا ينظمون القصائد الشعرية، ويتصنعون في نظمها ويتنافسون، حتى لو لم تكن لديهم الموهبة والقدرة الإبداعية على تشكيلها، بحيث

استلات رفوف مكتباتهم بمجموعة كبيرة من الدواوين الشعرية الفنّة والشبيهة في ان. غير انّه نجدر الإشارة إلى أنّ مجموعة من هؤلاء الأباطرة كانوا على قدر كبير من الإبداع، وكانوا يمتازون بمواهب رائعة، وقدرات كبيرة على نظم الشعر الجيد والمتميّز، جعلتهم يحتلّون مكانة مهمة في تاريخ الأدب الصيني، ولا تزال الأجيال الأدبية الجديدة والمعاصرة تكنّ لهم التبجيل والتقدير والاعتراف بهذه المكانة، ومن بين هؤلاء الأباطرة الموهوبين:

١. الإمبراطور هان قاو دو (ليوبانغ)
٢. الإمبراطور هان وو دي (ليوتشه)
٣. الإمبراطور تساو تسو، وابنائه تساو جي و تساو بي
٤. الإمبراطور سوي يانغ دي (يانغ جيان)
٥. الإمبراطور تانغ شيوان تونغ (لي لونغ جي)
٦. الإمبراطور لي يوي، وهو آخر أباطرة أسرة تانغ الجنوبية (من بين الأسر الخمس)
٧. الإمباطور تشينغ قاو تونغ (تشيان لونغ)

ويبدو أنّ الزعيم الصيني والقائد الكبير ماوتسي تونغ (١٨٩٣ ـ ١٩٧٦م)، باني جمهورية الصين الشعبية، ومؤسسها، تأثّر بنظريات كونفوشيوس إلى حدّ بعيد، ويسار على منوال أسلافه الأباطرة ذوي الموهبة الشعرية المتميّزة، والفضائل الأخلاقية الكونفوشيوسية، فأخذ ينظم القصائد الشعرية الطويلة التي تمجّد الصين وطبيعتها الساحرة، وثورته التي قضت على النظام الإقطاعي، وقد وضع نفسه في مصاف الشعراء الموهوبين، بل رأى نفسه أنه على المستوى الشعري، أهم بكثير

من الأباطرة الشعراء الذين سبقوه، وها هو يؤكّد تفوّقه عليهم قائلاً في إحدى قصائده

مناظر الشمال

ألف (لي)** يحتدها الجبـ
وعشرة آلاف (لي) يتدثرها
وراء، السور العظيم وامتداد
بساط أبيض يمتد بلا نهاية
النهر الأصفر من منبعه الـ
قد خمد تيّاره الجمار فجأة
الجبال اقامع فضية تتراقص
والهضاب قبلة شمعية تتـ
تنافس السما، في علوها
وفي اليوم الصافي الجمـ
تبدو الأرض
وقد توشحت بالبياض وا
أكثر سحراً وجمالاً
ما أروع هذي الجمال وا
لها يخضي الأبطال إجلا
وا اسفاه
الإمبراطوران تشين شـ
لم تشرق فيهما البلاغة
والأخران تانغ تاي تسـ
لم تزهر فيهما الموهبة
وجنكيز خان
ظلّ الله على الأرض
لا يعرف غير أن يوتر
كل ذلك طواه الزمن
لكي تعرف العظما
انظر إلى عصرنا هذ
ونلاحظ من خلال
أن الزعيم ماو تسي
من أهم أباطرة الصـ
الإقطاعي الطويل الذ
وهؤلاء الأباطرة الذ
لأنفسهم حجماً أكبر

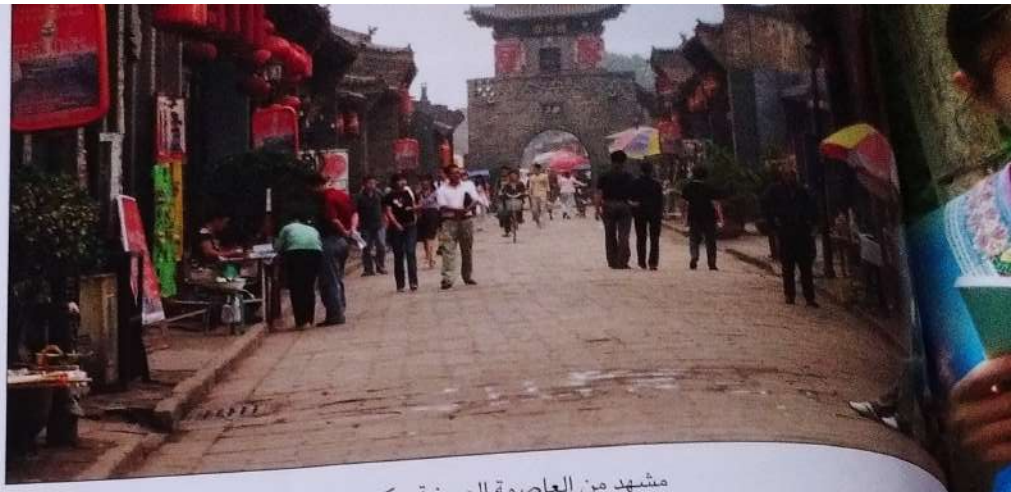

مشهد من العاصمة الصينية «بكين»

...شين شي هوانغ،٢٥٩ ـ ٢١٠ ق م)، و: ...ان وو دي، ١٥٦ ق م - ٨٧ ق م)، و: (تانغ تاي ...ونغ،٥٩٩ ـ ٦٤٩ م)، و: (سونغ تاي تسو، ...٩٠ م٩٧٦)، والإمبراطور المغولي (جنكيز ...١١٦٢ ـ ١٢٢٧م).

ويتفق كثير من نقاد ماو تسي تونغ في ...ره، و العصور التي أتت بعده، أنّ ثمّة جانباً ...يا مشرقاً في حياته، فقد ترك للمكتبة ...ينية ميراثاً شعرياً كبيراً نال إعجاب الكثير ...ن أصدقائه وأعدائه في آن، وقد رأى هؤلاء ...قاد أنّ آثاره الشعريّة الرائعة التي تمجّد ...ض والإنسان والثورة والأحلام والطموحات ...ينية الكبرى تجعله يتربّع على عرش الأدب ...ني، وتجعل منه أميراً على شعراء الصين ...ده والعهود التي سبقته، ومن دون منازع. ...ع الشعري السابق هو جزء من قصيدة ...راها النقاد أنّها تشكّل (جوهرة ناصعة) ...ماله الشعرية. وقد نظم هذه القصيدة ...حربه الثوريّة الداخلية ضد حزب ...تانغ) عام ١٩٣٦م، ونُشرت في صحيفة ...خوا) عام ١٩٤٥م. ويقال إنّ هذه ...ة أثارت حفيظة الزعيم (تشيانغ كاي ...ي خلف (صن يات سون) في رئاسة ...ذلك عندما سافر ماو تسي تونغ إلى ...نو نغتشينغ) التي كانت العاصمة ...للصين حينذاك، بناء على دعوة من ...يانغ كاي شيك، لإجراء مفاوضات ...حزبين: الشيوعي الذي يتزعّمه ماو ...: الوطني الذي يتزعّمه تشيانغ كاي ...ن قرأ هذا الأخير هذه القصيدة ...ده الشديد ونار غيرته، فأمر ...تقة في بلاطه بتشكيل قصائد ...تقفي وزنها وقافيتها، وذلك لتسليط الضوء عليه، وليثبت لماو تسي تونغ أنّه شاعر مجيد مثله، لكنّ محاولاته باءت بالفشل إذ جاءت قصائد شعرائه أقلّ قيمة وجمالا من قصيدة ماو.

وأحبّ أن أشير إلى أنّه من خلال تناوب الأسر الإقطاعيّة على حكم الصين ظهر نوع من الحريات الفكرية أفرزت بدوها حركات فلسفيّة وفكريّة عديدة، عبّر عنها عدد غير من المفكّرين والفلاسفة، فقد شهد عصر الربيع والخريف (٧٧٠ ـ ٤٧٦ ق م)، و عصر الممالك المتحاربة (٤٧٥ ـ ٢٢١ ق م)، نشاطات إيديولوجية ومعرفيّة وفلسفيّة عديدة، حيث كانت الشخصيّات الفكريّة التي تمثّل المذاهب المختلفة تؤلف الكتب بحريّة، وتطرح آراءها، وتناقش الأوضاع السياسية وما آلت إليه من ترد و صراعات، وتنتقد الأوضاع الاجتماعية السيئة، وتدعو إلى تجاوزها، وتدعو إلى حرية الفكر، بتنوّع مدارسه وتيّاراته، وتكرّست في هذين العصرين المقولة الشهيرة التي لا يزال يرددها الصينيون المعاصرون حتى الآن: (دع مائة زهرة تتفتح ومائة مدرسة فكريّة تتبارى).

وفي جوّ الحريات، والتعددية الثقافية والمعرفية هذا ظهرت فئة من المثقفين والمفكّرين والفلاسفة والشعراء الحكماء والفرسان الأبطال الذين كرّسوا حياتهم للتضحيّة من أجل الآخرين، كما ظهر عدد من أهل المعرفة الذين كانوا جلساء لرجال السلطة وأصحاب النفوذ والجاه، و الذين هم أهل البصيرة القادرون على فهم حركة التاريخ و صيرورته، والناصحون والمستشارون للحكام، والقادرون على نشر آرائهم وأفكارهم.

ومن هؤلاء المفكرين والفلاسفة: لا وتسي، و كونفوشيوس، و منفشيوس، و سون وو، و جون

الواقعي في الأدب الصيني، ثمّ يأتي بعد ذلك كتاب "ملاحم تشو الشعرية" للشاعر تشيو يوان الذي يجسّد ومانسيّاً أهم الخصائص الثقافية لأسرة تشو. ويرى الناقد الصيني المعاصر الدكتور لي يان خو. أنّ هذين الكتابين وضعا (أساساً قوياً لكل من المذهب الواقعي والرومانسي في نظم القصائد والملاحم الشعريّة في الصين).

غير أنّه يمكن القول إنّ أهم المفكرين الذين ظهروا في عصر الربيع والخريف هو كونفوشيوس (٥٥١ ـ ٤٧٩ ق م)، وهو من مواليد مقاطعة (شان دونغ) التابعة لمملكة (لو)، وقد عاش حياة بائسة فقيرة بعدما توفي أبوه، وقد عمل أميناً للمخازن عندما كان شاباً، أمّا في مرحلة شيخوخته، وبعد أن ذاعت شهرته إلى آفاق الصين القصيّة، فقد عمل مسؤولا عن القضاء، وهو صاحب مدرسة فكريّة خاصة، يتّبع طلابها خطواته وأفكاره وآراءه، وعُرفت بالمدرسة الكونفوشيوسية. ويُعدّ كونفوشيوس أعظم معلّم تربوي، وأهم مفكّر مشهور في التاريخ الصيني القديم والحديث، وكانوا يسمّونه في المجتمع الإقطاعي بالحكيم، وهو واحد من رموز المعرفة والفكر المعروفين في العالم، غير أنّه، مثله مثل معظم المفكّرين في العصور والحضارات، لم يلق الاهتمام من الحكام والأباطرة، لأنه كان يدعو على إصلاح الأوضاع الإنسانية والسياسية، ويدعو الحكام إلى الرأفة بشعوبهم، وفي أواخر حياته انهمك في تأليف الكتب، وقد ألّف أربعة كتب مشهورة جداً من بين الأدبيات الصينية الكلاسيكية، وهذه الكتب هي: (كتاب التاريخ)، و(كتاب الأغاني)، و(كتاب التغيرات)، و(كتاب الآداب)، و وضع في هذه الكتب أفكاره العادلة، و نظرياته العادلة، و نظرياته التربويّة، التي تحثّ على استنفار المحبّة بين بني البشر، ومقاومة النظام الإقطاعي الاستبدادي في بلاده، والتعاطف مع آلام الشعب ضدّ الأباطرة المستبدين، و قد تتلمذ على يديه، والنهل من نظرياته ثلاثة آلاف تلميذ، برز منهم اثنان وسبعون تلميذا لامعاً، يطلق عليهم الصينيون اسم: (الطلاب البارزين). وبعد وفاته يترك أثر عميقاً في الأجيال التي تأتي بعده، إذ تُعلّق صورته الشخصيّة على الجدران في المدارس و ينحني طلابها احتراماً وإجلالاً لهذه الصورة ويعدّه هؤلاء الطلاب الزعيم الروحي لأفكر الشعب الصيني وأخلاقه، والمعلم الكبير الأب في تاريخ الصين. ■

*باحث وقاص وروائي وأستاذ جامعي مدر سابق في جامعة الدراسات الأجنبية في بكي الصين .

** «اللي» يساوي نصف كيلو متر.